AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

CA
914.60
F24rA
C1

رحلة الى

بلاد المجد المزقوق

الباب

بقلم وريثة

مصطفى فروخ

مصدر بمقدمة للاستاذ

عمر فاخوري

49328

Gift Cat. Oct. 1933

مطبعة الكشاف ببيروت

بيروت ١٣٥٢ — ١٩٣٣

UNIVERSITÄTS- UND LANDES-BIBLIOTHEK DÜSSELDORF

اهداء الكتاب

الى الفن الاندلسي العراقي الذي اوحى

الي هذه السطور .

الى ارواح اولئك الفنانين الذين

اغفلهم التاريخ وخلدتهم اثارهم الناطقة .

الى محبي الفن والجمال اقدم كتابي هذا .

فروخ

رسالة مقدمة

أخي مصطفى فروخ حفظه الله

لقد أوليتني شرفاً عظيماً ، وحملتني عبئاً (لا أقول : ثقيلاً) اذ سألتني أن أقدّم كتابك هـذا الى القارئين . فأشكرك أولاً ، وثانياً : ارجو أن اكون عند حسن ظنك وظنهم ... أعني القارئين .

وليس هذا يا اخي بهيّن ، فإني منذ بضع سنين لم أعانِ كتابة رسالة واحدة الى صديق أو قريب ، في أخسّ الحاجات وأبسط الامور ، فضلاً عن مقالة ، ناهيك بمقدمة كتاب !

وما هذا الكتاب ؟ – هو اول كتاب من نوعه في لغة العرب ، فإذا لم تكن الطرافة من مزاياه ، بل من حُلاه ، فأين الطرافة تكون ؟

سألتني ايها الصديق مقدمة لكتابك الطريف ، فهل تأذن الآن لي أن استهلّ كلماتي العجاف بهذه القطعة الموسيقية الفريدة من تأليفك الميمون ، في وصف جامع قرطبة ، خداعاً لنفسي وتمويهاً على الناس ، ولو هنيهة ؟

« قناطر مشتبكة كانها ارواح حملت من النقوش الدقيقة المشجرة ما هو اشهى من الاثمار ، او كأنها غابة من النخيل الظليل في واحة غناء وارفة الاغصان . وهناك على الجدران رسم وحفر ونقش وترصيع ووشم غاية في الفن والابداع ، تحلّت بالذهب ووشيت بالالوان الزمردية والقرمزية والسماوية ... »

رسم وحفر ونقش وترصيع و « وشم » !

من أين لك هـذا « الوشم » البارع ، واسطة ذلك العقد

الفريد ، ايها العزيز ؟

وددتُ لو أنه لي بكلّ ما زخرفتُه ورصعته ووشيته أنا ، من خزف الكلام !

لقد ملكتْ لبي هذه الكلمة في هذا الموضع من وصفك البديع ، وأسكرتني ، وادهشتني ، ولا يزال صداها يرنُّ في خاطري ، وليس أشكالها في تضاعيف كتابك بقليل . فكأني بك لم تقنعْك – وهل يقنع من آتاه الله مثل طموحك وجدّك وهمتك ؟ – الريشةُ الساحرة التي أخرجت من روائع الصور ما كان ولن يزال فتنةً للعالمين ، ولم تكفك الانوار والظلال ، والخطوط والاشكال ، تؤلف أو تخالف بينها ، تارة اختراعاً رمزياً ، وتارة محاكاةً طبيعية ، في قطع كأنها قُدَّتْ من صميم الجمال ... لم يكفك ذلك كله وانت فيه المجلّي ، فأتحفتَ الناس بهذا الكتاب ، باذلاً فيه العطايا الفطرية ، والحسنات الكسبية ، التي جعلتك المقدَّم في فنك النفيس ، من صدق النظر ، الى دقة الملاحظة ، الى رقة الاحساس ، الى سعة الخيال .

ولعمري ان لغتنا وادبنا لا يجنيان إلاّ خيراً من تمرّس أهل الفنون بهما ، اذ كلٌّ يكسبهما من خواص فنه ، واساليبه وأداته وسننه ، ما يزيدهما غنىً ونماءً ، وينحو بهما المناحي الجديدة التي لا حياة للآداب واللغات بدونها . ثم أليست الفنون جميعاً وان افترقت سبلاً ، تجتمع اخيراً تحت راية واحدة — هي سحر البيان ؟

لا اطيل ايها الصديق ، لاني أضنّ بشوق القاريء أن أمسكه طويلاً على عتبة كتابك ، وهو يهمّ أن يصحبك (ولنعمَ الصاحبُ انت !) في هذه الرحلة السعيدة الى بلاد المجد المفقود

كانت رحلة موفقة ، أرجو لكتابك الجميل ، وقد أسلمتْه يدُ الطابع ، مثلها — حتى يبلغ المدى في عالم البقاء . إن اجادتك لجديرة بهذا التوفيق ، حفظك الله .

بيروت في ١٩ مايو ١٩٣٣

المخلص

عمر فاخوري

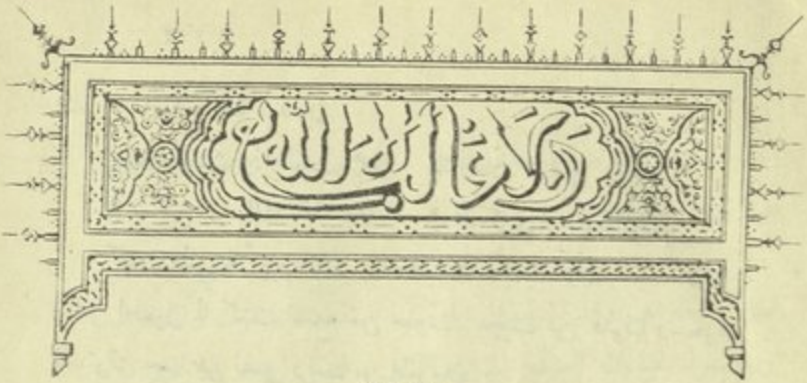

الأندلس ومن لم يسمع بها ؟ هي غرناطة ، اشبيليه ، قرطبة وطليطله ، بل هي جامع قرطبة وزهراء اشبيلية وحمراء غرناطة الساحرة .

هي بلاد الوحي والفن والجمال ، نزل بهـا العرب فاوحت اليهم ماؤها وارضها وسماؤها فنوناً عاليه مهرها الخلود بخاتمه والبسها منذ ظهورها حلة من الروعة والجمال لا تبلى ، من شعر كانه قطع الوشي ، او اغاني الملائك ، او ترديد المنشدين ، وبناء جمع الضخامة والدقة والتناسق فجاء آية من آيات الفن وفتنة للناظرين ، وتصوير تخال الحياة تدب فيه دبيباً ، ونقش كانما الاصابع التي اشتغلت به لم تكن اصابع

بشر بل اصابع آلهة مبدعين .

جادك الغيث اذا الغيث هما يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما في الكرى او خلسة المختلس

كنت طفلاً يوم فتنت بهذه البلاد الجميلة ذات المجد الاثيل والفن الجميل لما كنت اسمع من حديث عجيب عن فنونها وسحرها فاستوثق حبها من نفسي وبت من المغرمين .

اجل شغفت بها طفلاً وشاباً وسأحتفظ بهواها مدى الحياة ، ولا عجب فالمجد والفن جديران بالحب والهيام .

وكان يزورني طيفها ويريني من جمالها مشاهد خلابة وعن تاريخها صفحات مجيدة فتمر بي بتلك الديار فأرى ابن الرازي في مخبره منهمكاً بتجاريبه الكيماويه أو أراه جالساً في احد المعاهد الطبية وحوله الالوف من الطلاب يلقي عليهم محاضراته القيمة في الطب والكيميا ، وها هو ابن رشد بلحيته السوداء وثوبه الابيض الفضفاض ، يبدي آراءه الفلسفية . أليس هذا ابن جابر ؟ هناك في الجهة الاخرى ألا تراه قائماً بين الجماهير الكثيرة يحاضر في الجبر والهندسة والعلوم الحسابية ؟

انه لمشهد جميل فلا تابعن السير . انني امام الولادة بنت المستكفي وقد قامت في حلقة تشرح لمن حولها سحر الشعر والبيان

وفنون الادب ، وما اجمل منظر ابن قرناس والجوهري وهما يجربان طيارتهما امام الخليفة .

ثم يأخذني الخيال الى ابعد من ذلك فيدخلني الى قصور الخلفاء ، فاراهم وقد تسنموا عروشهم يستقبلون الملوك والسفراء ، او جلسوا يقيمون العدل بين الناس ، فاتمثل احبار روما ورجال الامم الاوربية يومئذ وكانوا لا يزالون في الجهالة ، اي نعم اتمثلهم وقد اتوا لتلقي العلوم في المعاهد العربية .

اشاهد الامراء والشعراء على باب الخليفة تنتظر اذنه بالدخول ، اتخيل القواد والحجاب هنا وهناك ، تمر امامي الجيوش ، أسمع امر الخليفة في قرطبة فيتردد صداه في انحاء العالم باسره ، أبصر الاموال الكثيرة والفديات والهدايا اكداساً على اعتاب الملوك الذين ينثرونها على العلماء والشعراء والنابغين فتفيض قرائحهم بالمعجزات من العلوم والراقي من الفنون .

اتأمل في هذا العز وتلك العظمة وذاك الثراء فيخفق فؤادي فرحاً لهما وتأخذني نشوة المجد فاندفع لاهتف طرباً ولكن لا تلبث الحقيقة المرة أن تفاجأني فيتلعثم لساني اذ اعلم ان ما اشاهده ليس سوى خيال الماضي وأوقن انه لم يبق لنا من مجدنا الغابر سوى بقية آثار

هي شاهد عدل .

نعم قد امحت تلك المدينة الزاهرة وتلاشى ما كان فيها من عز وسلطان وجيوش لجبة ولم يبق منها سوى آثار صاغهـا الفن فجعل منها خطباء تشيد دوماً بعزها التليد .

اجل ان الفن مع لطفه لجبار لانـه خالد والخلود من شأن الجبابرة والعظماء والامة التي تترك فناً باهراً هي امة خالدة لاتموت .

ها هي اهرام مصر قائمة خطباء على كر الاعوام ، وها هو « اكربول » اثينا وبقايا معبدها ، و « البانتيون » العظيم كلهـا شهود عدل على مدنيتهم وتاريخهم السالف . وما روما باقل بلاغة وعظة عن اخواتها الماضية .

هذه البقايا البسيطة من الاعمدة المحطمة ، وتلك الاثار الجاثمة على رمال الصعيد وعلى اكربول اثينا وفي منعطفات روما هي في الحقيقة ثروة الامة الثمينة ، وتاريخها الناطق عن مجدها الاثيل .

هذه الآثار حركت من نفوس ابنـاء النيل وسكان اثينا وروما وغيرهم من الامم ذات المدنيات الغابرة ، نعم هذه الآثار ايقظت في هؤلاء روحاً تدفعهم الى استرجاع مدنيتهم التالده فكان ماأرادوا ادركت ذلك فعدت بالذكرى الى الاندلس انظر الى قرطبة

والزهراء ثم التفت الى الحمراء وقبابها الزمردية الجميلة التي تقبلها الشمس باشعتها اذ تذكر لها عزها القديم ايام كانت عاصمة الناس اجمعين ؛ فتهوي عليها بقبلاتها الذهبية وتنثر عليها من دموعها النورانية صباح مساء ثم التفت الى اعمدتها الرخامية الساحرة ونقوشها الرائعة والى الاثار الباكية التي جمعت الى الفن والجمال ، تاريخ امة ومدنيتها ، فاشعر بقوة ورجاء بالحياة ، وعزم للعمل والتقدم فاقول لابناء قومي : ان امة لها هذا الفن وهذا التاريخ الحافل بالعظائم وجلائل الاعمال ، لهي امة لن تموت .

كانت تمر الايام وهيامي بالاندلس ينمو والرغبة تشتد لزيارتها والحج اليها وكلما تراءت لي باحة الاسود واعمدتها الرشيقة واروقة جامع قرطبة المهيبة ، وزهراء اشبيلية الرائعة ، كانت تثور اشجان نفسي وتذكو نار حبي لزيارة ارض المجد ومهبط الفن وودت لو تنزل قوة من السماء تحملني الى تلك الارض التي طالما حنت اليها روحي واشتهت شم شذى تربتها الزكية نفسي .

والآن ليسمح لي القارىء الكريم قبل ان احدثه عن جمال الفن العربي ان امهد له بكلمة مجملة عن اهمية الفن في حياة الامم وعن قيمته في جوهر التاريخ العام .

قال بعض الفلاسفة : « لا تاريخ لامة الا بفنهـا » أليس الفن هو المقياس لرقي الامم ؟ أوليس هو لغة الاجيال التي تكلمنا اليوم؟

لاشك ان الفن هو الذي يغذي التاريخ ، بل هو التاريخ المحسوس الذي لا يقبل حزبية ولا تدجيلا ولا تسطو عليه يد الفناء .

يأتي العالم الاثري بقطعة بسيطة من الحجر نحتتها يد انسان منذ آلاف السنين فيقرأ فيها صحيفة صحيحة من التاريخ كانت مطوية لانعرف عنها شيئاً .

الفن العربي

وبعد فقد اثبتت لنا الاثار التي خلفهـا العرب ان لهم فناً خاصاً هو نتاج مدنيتهم وعصارة ادمغتهم يدل بوضوح عن شخصية معلومة ، ومدنية راهنة .

لقد تقلص ظل العرب عن اسبانيا وغيرها من امبراطوريتهم الواسعة ودالت دولتهم في الغرب كما دالت في الشرق وتلاشى ما كان فيهـا من عظمة الملك وقوة السلطان من ملوك وجيوش وما هناك من حول وقوة .

اجل لم يبق شيء من كل ذلك ، مضى كامس الدابر واسدل

عليه الدهر ستار الفناء. فاذا هو نسي منسي ، لولا ان هناك بقية اثار قائمة ومعالم شاخصة تنادينا صارخة بلسان الشاعر :

تلك اثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الاثار

لنأخذ اذن هذه الاثار ونضعها تحت الدرس نستجلي غوامضها ونتفهمها كي ننفذ منها الى نفسيات ذاك الشعب وندرك تاريخ ذاك العصر ودرجة تلك الحضارة .

ان الفن العربي الصريح بدأ مع الاسلام لانه لم يكن قبله شيء يدعى فناً عربياً خالصاً بالمعنى الصحيح ولا سيما نحن نعرف قصة ذاك العربي الذي كان يصنع آلهة من تمر فاذا جاع التهمها ، عندئذ يمكننا ان نتصور درجة الفن يومذاك .

من اجل ذلك فان البحث يتناول فن المعمار فحسب . لو بحثنا عن منشأ الفن العربي في البناء لوجدنا ان نهضته لم تظهر الا بعد حين ، اي يوم اخذت المدنية العربية بالنضوج وبعد ان اختمرت فيها تلك التأثيرات الخارجية الناجمة عن احتكاكها بامم ذات مدنيات عريقة من اغريقية وفارسية وهندية ، لذلك كان لا بد لها من التمخض بفن خاص بها يعبر عن صورة نفسها وبيئتها .

علمنا التاريخ انه لا يمكن لامة ما ان تبلغ درجة سامية من

المدنية الا ان تأتي بفن خاص بها ، لان الفن هو نتاج كل مدنيةووليد كل حضارة لهذا حينما بلغ العرب مكانة عالية من الحضارة اتحفوا العالم بفن عربي خالص ، وها هي آثاره منتشرة من الصين حتى تبلغ شاطىء المحيط الاطلنطي .

قد يقول قائل ان العرب لم يخلقوا فناً لهم بل اقتبسوا فنون الامم السالفة فانا أجيب : ان المدنيات كافة هي وليدة بعضها ، وان لا جديد تحت الشمس . فقد اكتسح العرب العالم واحتكوا بحضاراته فكان لا بد لهم من التأثر بها كما تأثر قبلهم الاغريق بالمصريين ، والرومان بالاغريق الخ . . . وكذلك تأثر العرب بالحضارة الاغريقية والفارسية حينما استولوا على بلديها وهذا التأثير يظهر لنا أثره في بدء نهضتهم الادبية والفنية . وهذا ما نراه بادياً في القوس والاسطوانة وتاج العامود وفي النقوش في عهدها الاول . ولكن لو تأملنا هذه الاشياء ودرسناها تحت ضوء المعرفة الفنية لوجدنا ان العرب لم ينسخوها نسخاً ميكانيكياً جافاً كلا بل هم اخذوا الفن واستساغوه ثم أخرجوه للعالم بثوب عربي جميل يسير فيه الروح العربي .

ومما هو جدير بالانتباه الخصب العجيب في النسق العربي فقد برهن ابن الجزيرة عن فن كبير وبعد خيال في فنه لم يعرفه غيره ممن

تقدموه فهو قد ابتكر لكل بيئة او بلد نزلها نسقاً خاصاً يتناسب مع طبيعة البلاد وجمالها ورغم ما فيها من تنوع واختلاف فقد اسبغ عليها طابعاً خاصاً هو الطابع العربي والشخصية العربية . وقد اسس لهاخمس مدارس او اصناف : المدرسة السورية والمصرية والمغربية والفارسية والعثمانية ثم الهندية فنرى امامنا مجموعة رائعة من التنوع لو تأملناهـا بجموعها لوجدناها عربية بحتة .

الفن الاندلسي

ومن هذه المدارس الخمسة نشأ النسق الاندلسي موضوع بحثنا وهو ارقى ما بلغه العرب في فن البناء لانـه يمثل الذروة للحضارة العربية . والفن الاندلسي مر في ثلاثـة ادوار اساسية : دور الفتح او النهضة ، دور الانتقال ثم دور السقوط وفي كل من الادوار الثلاثة نرى صورة ناطقة عن النفسية العربية في تلك الديار .

من الاثار البارزة للدور الاول جامع قرطبة الشهير الذي انشأه الخليفة الاموي عبد الرحمن الاول ، ويعد مسجد قرطبة اعظم جامع في العالم وآية من ايات الفن المعماري ، يقصد زيارته السياح من

اقاصي البلاد للتملي بروائع فنه .

ثم دور الانتقال الذي يظهر ماثلاً في قصر الزهراء (الكازار) في مدينة اشبيلية وهو يمثل الدقة واللطف والاناقة شيده محمد الناصر في الجيل الحادي عشر ثم أكمل في الجيل الثالث عشر .

حينما سقطت اشبيلية في زمن حكامها بن عباد تمركز الفن في غرناطة حيث لمع زمناً ثم دفن هناك حيث دفنت الحضارة العربية في الاندلس مع حكامها بني الاحمر وبني نصر الذين انقضت بسقوطهم دولة العرب في الاندلس عام ١٤٩٢ .

تاريخ الاندلس

وقبل ان نذهب الى الاندلس لابد من ان نعرض امام القارىء لمحة سريعة عن تاريخ تلك البلاد رغبة في ايفاء البحث حقه واكساب الموضوع بهاءه .

الاندلس احدى مقاطعات اسبانيا . واسمها في الاصل « وندلوسيا » نسبة الى الوندال او الفندال الذين استوطنوها بعد الرومان فلما فتحها العرب سموها الاندلس .

كانت اسبانيا من جملة مملكة الرومان الغربية الى القرن

الخامس للميلاد ، فسطا عليها القوط وهم من القبائل الجرمانية البربرية التي نزحت من الشمال الى اواسط اوروبا طلباً للمرعى والمعاش ، ثم استولوا على اسبانيا في القرن الخامس وانتزعوها من الرومانيين وانشأوا فيها دولة قوطية انتهت بالفتح الاسلامي سنة ٧١١ م .

في سنة ٨٩ هـ عين الوليد بن عبد الملك القائد موسى بن نصير اللخمي عاملاً لافريقية ، وكان موسى قائداً جريئاً وسياسياً قديراً ذا خبرة ودهاء . فقبض على ناصية الحكم بعزم ونشر في بلاد افريقية الامن واقام العدل فحسن الحال وازدهرت البلاد .

اصبحت افريقية بعد الحكم الاسلامي تتمتع بنعمة العدل والحرية في حين ان الاسبانيين في الجزيرة المجاورة كانوا يئنون تحت نير القوط الثقيل وكانت عاصمة القوط مدينة طليطلة التي كانت عامرة بالحصون والقصور والكنائس وكانت مركز الدين والسياسة .

وقد عاب المؤرخون على القوط عدم امتزاجهم بالاهالي واستخدامهم الانظمة الرومانية القديمة التي ترهق الشعب وترضي طبقة الاشراف فوق انهم كانوا منغمسين بالملاهي والفجور .

يقول المؤرخ جيبون ان سهولة استيلاء العرب على الاندلس سببها شجاعتهم النادرة اولا وهدم القلاع والتحصينات ، هدمها ملوك القوط

انفسهم حباً باخماد الفتن التي كانت تنشب بينهم ولذلك رأيت المدن الاسبانية تسلم كلها للعرب بدون قتال الا « قرطبة » و طليطلة »

والحقيقة ان العرب ما كانوا ليستولوا على سبته التي يفصلها عن الاندلس مضيق جبل طارق بتلك السهولة لو لم يدع حاكمها الكونت يوليان موسى بن نصير مولى بني امية بافريقيه للدخول الى المدنيـة والاستيلاء على الاندلس وقـد فعل ذلك لاسباب جمه ، هو ماسمعه عن عدل العرب في البلاد المجاورة وما يراه من ظلم وفساد من حكام القوط ، ثم انتقاماً من الملك رودريك الجالس على العرش الذي انتهك عفاف ابنته في البلاط الملكي في طليطله .

كان ملك الاسبان عام الفتح الملك لذريق كما كان يسميه العرب تولى الملك عام ٧٠٩ ولم يكن من العائلة المالكة ولكنه اختلسه من عائلة « ويتزا » او غيطشه القوطية التي اسسها « الاريك » .

لذلك فان لذريق ترك ابناء غيطشه واتباعهم ناقمين عليه . وكانت اسبانيا تنقسم الى ولايات او (دوقيات) يتولى كل منها حاكم يسمى الدوق او الكونت ويرجعون جميعاً الى الملك .

و كانت العادة ان يعيش ابناء الدوقات بقصور قريبة من قصر الملك وبلاطه في طليطلة وينشأون في البلاط الملكي معـاً يتعارفون

ويتأدبون فيشبون على ما يرضاه الملك .

وكان للكونت يوليان حاكم « سبته » فتاة تسمى « كافا » فتاة رائعة الجمال ارسلها والدها الى بلاط الملك في طليطله لتتلقى مايليق بها من التربية بين كريمات العقائل والاشراف فملك جمالها الفتان قلب الملك لذريق وقاومته الفتاة ولكنه اغتصبها فاخبرت اباها بذلك العار فاقسم بالانتقام وبات يرقب الفرص خلال الحوادث السياسية للقضاء على الملك المختلس — الفاجر .

هذا من جملة الاسباب التي دفعت بالكونت يوليان ان يكتب الى موسى يستحثه لفتح اسبانيا .

ولكي يتحقق موسى من صدق المشروع جهز خمسمائة مقاتل بقيادة طريف ابن مالك فعبروا البحر من سبته الى البقعه ، وسميت بجزيرة طريف ٧١٠ م . وقد لقوا من اكرام المسيحيين ومن خيرات الجزيرة ما حمل موسى ان يجهز سبعة الاف مقاتل من العرب والبربر بقيادة طارق بن زياد الليثي احد ضباط البربر وحاكم طنجه ، وكان طارق جنديا مقداماً فعبر البحر ونزل بالبقعة التي سميت الى الآن بجبل طارق .

وحينما بلغ الخبر لذريق ادرك جسامة الخطر فجهز جيشاً

ضخماً يزيد على مائة الف محارب ، وارسل موسى نجدة الى طارق حتى اصبح عدد جنوده اثني عشر الفاً فاصطدمت جنود العرب بشرازم من القوط في مكان يدعى البحيره فانهزمت وتوغل العرب في قلب الجزيرة .

وعلى قيد فرسخين من قادس شمال (سيدونيا) على ضفاف نهر وادي « لكه » تلاقى العرب والقوط في ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ وفي اليوم الرابع نشبت بينهما معركة عامة . شعر فيها العرب بثقل وطأة العدو وراعتهم كثرته وامتلأ السهل من قتلاهم ، فاخذ طارق يشجع رجاله فالقى فيهم خطبته الخالدة :

« ايها الناس ! اين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة أضيع من الايتام في مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه ، واسلحته وأقواته موفورة ، وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم ولا اقوات لكم الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم . واني لم أحذركم امراً انا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة ارخص متاعاً فيها النفوس ، ابدأ بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فما

حظكم فيه باوفى من حظي . . . » الى ان يقول :

« ايها الناس ، ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، ان حملت فاحملوا وان وقفت فقفوا ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال . الا واني عامد الى طاغيتهم بحيث لا انهيه حتى اخالطه وامثل دونه فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل واسير . واياكم والوهن والخوف وهأنذا حامل حتى اغشاه فاحملوا بحملتي . »

وما فرغ طارق من خطبته النارية حتى فاضت نفوس جنوده اقداماً ففتكوا بالقوط فلاذ منهم بالفرار كثيرون والباقون وقعوا اسارى وما زالت قوات العرب تتقدم وتفتح المدن وتستولي على المقاطعات حتى دبت عقارب الحسد الى قلب موسى من نجاح طارق فارسل يأمره بالتريث ريثما يحضر . وقصد موسى الجزيرة في قوة كبيرة وتعاون وطارقاً على اكتساح سائر اسبانيا .

ولا ريب في ان العرب ساروا باعتدال وتسامح مع المسيحيين المغلوبين اذ سمحوا لهم بالقيام بشعائرهم الدينية وان يحاكمهم قضاتهم واشترطوا عليهم الجزية فقط وضمنوا ارواح امراء القوط ونسائهم وممتلكاتهم وكان اذا حدث شجار بين مسلم ومسيحي يعطى الحق

غالباً للمسيحي وهذا ما قاله المؤرخ « سيديليو » ونشأ بسبب ذلك تفاهم بين الغالب والمغلوب وشاع زواج العرب بالاندلسيات وزواج امراء الاسبان بعربيات كما فعل الفونس السادس اذ تزوج بزايدة ابنة امير اشبيليه ، والنتيجة انه لولا تسامح العرب لم تبق امة مسيحية محتفظة بدينها ولغتها ومقدساتها »

ظلت الاندلس منوطة بعمال الدولة الاموية من عام ٧١٣ م الى ٧٥٩ الى ان جاء من الشرق هارباً معاوية بن هشام عبد الملك المسمى بالداخل فاستلم الاحكام وتولى خلفاؤه من بعده الى سنة ١٠٢٨م بعد ان احيوا البلاد ونشروا لواء العلم وخدموا المدنية وبعثوا الفنون .

غير ان الملك تفرق بعد ذلك بين ملوك الطوائف وتلاهم المرابطون والموحدون حتى ملوك غرناطة من بني الاحمر في الجيل الرابع عشر حيث خرج العرب نهائياً من اسبانيا بعد ان ذبحوا واضطهدوا بكل انواع العذاب جزاء ما قدموه من خير للبلاد .

ان العرب قد جاوا عن اسبانيا غير انهم خلفوا فيها مدنية زاهرة واثاراً ناطقة على مر السنين ، مدينة وضاحة كنور الشمس قوة وبهاء فهي تنشر شعاعها دوماً على العالمين .

قرأت هذا التاريخ المجيد ولمحت من خلاله شيئاً عن ماض

جليل وفن رائع فدهشت وولدت في الرغبة الحارة لمشاهدة هذه الاثار الخلابة التي ادهشت الغربي قبل الشرقي ، فبت ارقب الفرص بنفس عطشى وروح ملتهبة . واخيراً شاء الحظ ان يبتسم لي بعد العبوسة فقصدت باريس كعبة العلم والفن ، قصدتها حباً بالاطلاع على ما وصل اليه الفن من التقدم وما بلغه من التجدد .

واني لا أرى بأساً من بسط صورة موجزة عن الحركة الفنية الحاضرة في باريس اتماماً للفائدة :

الفن الغربي

باريس اليوم هي عاصمة الفن الحديث بلا جدال ، ومحط رحال ارباب الفن من مختلف الامم ولا بد لصاحب الفن والذي يروم درجة رفيعة فيه ان يزور العاصمة اذ يرى بجانب ما فيها من متاحف ومعارض وآثار نادرة يرى من تنوع الفنون وضروبها وتعدد مذاهبها ، ما لا يمكنه ان يراه في اي بلد آخر . فباريس هي لابناء الفن في عصرنا « كسوق عكاظ » في الجاهلية . ففيها يشاهد المرء الفن الافرنسي والايطالي والانكليزي والهولاندي والصيني والزنجي وما

هنالك من فنون امم كثيرة حيث يظهر ما في فنونهـا من تباين جلي يدل عن اختلاف عظيم في الامزجة والشعور والعقلية فكأني كنت أرى اخلاق تلك الامم معروضة على لوحاتهم والفنان اصدق معبر عن اخلاق امته وعاداتها .

ان وجود الانسان في هذا الوسط لا يخفى ما يكسبه من فائدة كبرى فتغزر مادته وتقوى قوة الخيال عنده ويصبح لديه ثروة فنية عن مختلف الفنون الاخرى هي له مكتبة غنية يتصفح مجلداتهـا اذا ما دعت الحاجة .

ان عندنا المدرسة الافرنسية وثورتها الاخيرة والتي قبلهـا وما طرأ عليها من تطور وما نالها من تجدد حري بالدرس الشديد . فهناك جماعة المتأثرين الحساسين اي الانطباعيين التي قامت على المدرسة القديمـة وكان على رأس الثائرين مونه وسيزلي وديغاس وبيزارو وسيزان ورينوار وغيرهم .

ان هؤلاء الفنانين اعلنوا الثورة الفنية على المدرسة القديمة ، كما اعلن قبلهم ميرابو ودانتون وروبيسبيير وكثير غيرهم الثورة الدمويـة على الملكية العتيقة . ولكن في الثورة الفنية لم تجر الدماء انهـاراً ولم تملأ القتلى الساحات ولم تهدم قصور ولا قلاع ، انما اريقت الكثير

من الالوان ومزقت امتار من القماش والاوراق وتكسر عدد من الريش والاقلام وهدم الجوع المعد وبات الكثيرون على الطوى وصبروا على الفقر والاذى ، كل ذلك نصرة لمبدأ جديد واثباتاً لفكرة حديثة .

ان الامة التي تطلب التجدد وتسعى دوماً وراء البحث هي الامة التي تود الحياة والبقاء .

وجدت هذه الطائفة ان الفن قد مني بشروط تقليدية سخيفة كادت تقضي عليه فاعلنوا ثورتهم بايمان وعزم وكثير منهم قضى ولم ير نتيجة المعركة . ثم عقبهم جماعة آخرون توسعوا اكثر من سلفهم فكان منهم المنقسمون ، واصحاب المستقبل وغيرهم من طرق شتى فالمهم في الامر انها حركة عظيمة كان لها اثرها في كافة نواحي حياتهم الاجتماعية فطبعتها بطابع خاص عدا انها سببت حركة مهمة في عالم الصناعة والتجارة لا يمكن نكرانها .

ونهاية القول ان هذه الثورة لا بد منها لانها نتيجة عقلية حديثة وعصر جديد ولا يمكن للفن ان يثبت امامها ، انه تيار قوي جارف . قد وجدنا الفن في التاريخ يجاري الامم بسيرها ويترك لنا اثراً صادقاً عن حياتها . وجملة القول ان عصرنا عصر الحديد والكهرباء

عصر الميكانيك والسرعة عصر الراديو والطيران . . . كيف لايتطور الفن ويأخذ صبغة زمنية تدل عن عصره وبيئته ؟

واليوم بين تلك المذاهب الفنية المتعددة ما بين مجدد ورجعي ومتهور ، نقف معجبين بشهد الثورة مقدسين روح الجهاد والسعي والبحث .

والآن لندع فنون باريس تثور وتتطور لنترك هذا الخضم الزاخر من العلوم والفنون في تجاربها وتطورها ولنقصد الى اسبانيا بل لنول وجهنا شطر الاندلس مدفن مدنيتنا وفننا هناك لنا فن كثيراً ما تحدث عنه الاغراب ورويت لنا عنه العجائب . لنسرع اذن الى بلاد الفن العربي الذي اسكر الغربي بجماله فانساه فن بلاده .

هيا الى بلاد الاندلس مهد الفن ومشرق المدنية .

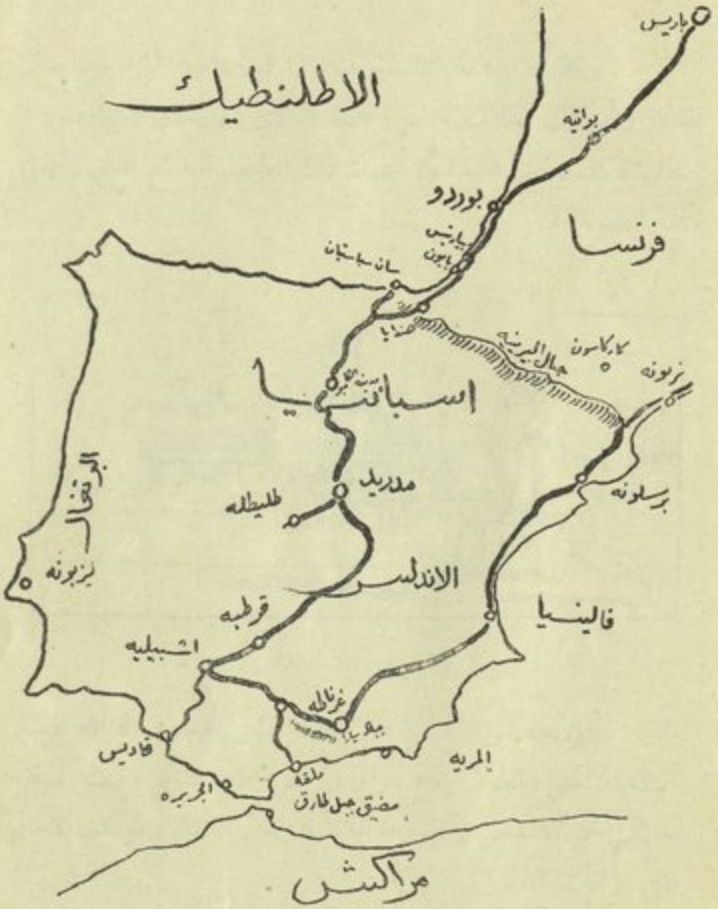
الاطلنطيك
باريس
بواتيه
بوردو
فرنسا
سان سباستيان
جبال البرنيه
برشلونه
اسبانيا
مدريد
طليطله
الاندلس
قرطبه
اشبيليه
غرناطه
المريه
قادس
الجزيره
مضيق جبل طارق
مراكش

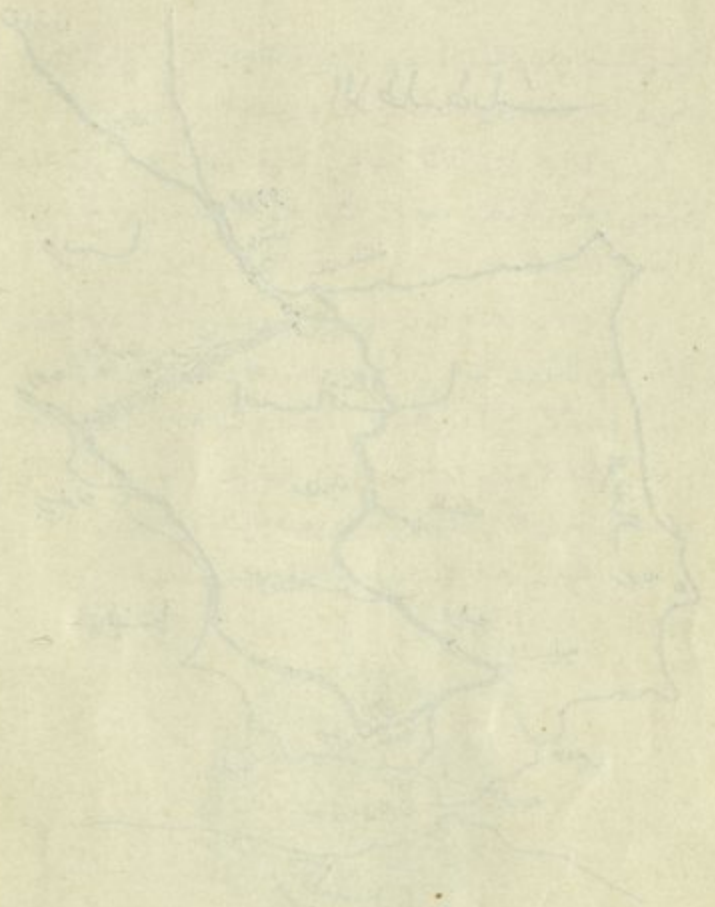

وكانت الساعة التاسعة مساء ١٧ تموز عام ١٩٣٠ حينما صفر القطار وتحركت عجلاتـه من محطة « كاي دورساي » بباريس . عندئذ تأكدت انني هذه المرة مدرك ذاك الطيف البديع الذي رافقني منذ الطفولة .

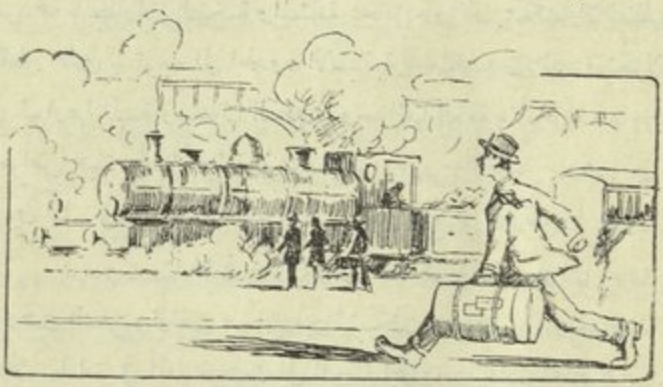

في طريقي الى الاندلس

في عيد من السرور سار القطار يشق حجب الظلام ، سار تحيطه افراحي وتطوف به مسراتي وترقص امامه نفسي وقـد سبقته احلامي نحو الاندلس وقصورها الخيالية ، سار القطار وموكب الآمال فعلى بركات الله .

في ضواحي « بوردو » فتح الفجر عيني على سهول خضراء رطبة فرشت ببساط من الكرمة كانت عناقيده لايزال ناضجاً الواحد على الاخر وقد غشيها الصباح بدموعه فسكنت هادئة مطمئنة .

وعند الساعة السادسة صباحاً كان القطار في محطة « بوردو » المزدحمة بالقطارات الضخمة والممتلئة دخاناً . وكان يمكننا ان ننتظر القطار الذي سيتوجه الى الحدود الاسبانية لذلك قصدت المدينة متجولا في شوارعها المهمة وساحاتها الكبرى وحدائقها العامة متأملا ما فيها من احواض جميلة وتماثيل رائعة تفيض بالفن وبالروح الوطنية . وهي على نوعين اما رمزية واما شخصية اقيمت لرجل نابغ او عالم تقديراً لجهوده

سرت متأملا في بناياتها ودار الحكومة ماراً بمرفئها حيث ازدحمت السفن وارتفت صواريها واشتبكت حبالها . وبعد قضاء ثلاث ساعات في المدينة عدت الى المحطة اجمل من لطف اهلها اثراً طيباً لم اعرف لاهل باريس مثله . انما مظاهر المدنية لم تترك في نفسي العظمة التي كنت انشدها وشتان بينها وبين باريس . وباريس واحدة في هذا العالم .

تركت بوردو تحت وابل من المطر لن انساه ما أمطرت الدنيا . . . وما كاد يبتعد القطار عنها مسافة يسيرة حتى طلعت علينا

الشمس بانوارها وضحك الجو وبدت الحياة على وجه الطبيعة وكانت ترتدي ثوبها الاخضر .

هنا حرج كبير من الشربين ، وهناك سهل فسيح تلاشى مع الافق او انتهى بهضاب قليلة . وهكذا قضينا زمناً نتصفح فيه من بدائع الطبيعة مجموعة ثمينة بل شريطاً جميلا وضعه فنان حاذق . وقد مررنا ببلدان كثيرة منها « بياريتز »..

ها هي (بايون) او بايونه كما كان يسميها العرب يوم نزلوها (من غير اليوم . . .) ، بدا لنا البحر وله زرقة قوية تفرح قلب من لم يره من زمن ، فسرحت نظري للتأمل بجماله ولكن القطار السريع لم يمهلني بل هرول نحو الحدود الاسبانيه Iron - Handaya وهنا لا ارى من حاجة لاطالة البحث لمعرفة الفروق بين البلادين فالهيئات والمعاملات واللغة تنبئك الخبر فتعيدك الى الشرق..

وهذه الكلمات الاسبانية ترن في مسمعي ولا تتخطاه . وهنا بحثت في زوايا ذاكرتي علّي اعثر على بعض كلمات اسبانية كنت درستها قبلا . انها قليلة جداً فما العمل ؟ ولكني وان لم ادرس مهنة الصيدلة فاني مزجت هذه الكلمات بشيء من الايطالية والافرنسية

فاتت بتركيب لغوي عجيب ولكنه قام بالحاجة .

وكنت لا اعرف اسم فندق آوي اليه عند وصولي لمدريد لذلك قصدت مكتب الاستعلام .

لله ما أجمل هذه الابتسامة واحلى هذه الاخلاق ؟ انه لشاب اديب ذلك الموظف في المكتب . وقد أخذ يشرح لي بلطف وتأن ، وزودني بما يلزم من التعليمات .

شكرته فودعني بايناس وانصرفت .

ان المرء ليشعر حالا باختلاف في البيئة ، فالبنايات والعادات والهيئات حتى الطبيعة فانها تختلف .

ثم قلت في نفسي لاذهبن الى بلدة « آرون » فلعل لنا بها ما يسر . وفي الحقيقة انها مع صغرها جميلة نظيفة صحية ، يرى المرء بها كل ما يدعو الى البهجة . فيها كثير من بيوت الاصطياف Villa على غاية من الظرف وجمال الهندسة وكذلك كثرت فيها المقاهي واعتقد انها احدى عواصم القار .

لله ما اجمل هذا الجو وما اصفاه ! وما ابهى نور الشمس . انني اتنشق الهواء النقي بملء رئتي لانني بحاجة اليه بعد هواء باريس الممزوج بالدخان الدائم .

عند الساعة الثامنة والدقيقة الاربعين ابتعد القطار السريع عن البلدة نحو مدريد وظلام الليل يحجب عني المناظر لذلك رجعت الى كتابي الذي يحمل اخبار الاندلس العزيزة ، وما مضى هزيع من الليل حتى فاجأني النعاس فاسلمت له اجفاني .

وعند الصباح جاءت نسمة عليلة توقظني ففتحت عيني على انوار الفجر التي خضبت الافق بالوانها الباهرة ، وارسلتها على سهول الحنطة النامية . ثم اخذت تظهر علينا في وسط هذه الاراضي المترامية قرى عديدة وفقيرة . وها هي قرية « مدينة الحقل » وهي بحالتها كذلك لانها واقعة في منبسط من الارض بين السهول والمزارع ، وقد بدا لي من منظر هذه القرية انها كغيرها من القرى التي مررنا بها ، كانت مدنا عامرة يدل على ذلك كبر المساجد وكثرتها وتعدد مآذنها .

اما هذه الدساكر فقد تبعثرت بيوتها البائسة واكثرها من « اللبن » والآجر وامتدت سطوحها بخطوط افقية تتراكم بعضها فوق البعض وارتفعت مآذنها الدمشقية التي امتزجت مع هذا الجو الشرقي وتلك الالوان الحية .

يعلم الله ان قوة التشابه جعلت في نفسي شكاً فظننت ان القطار ضل الطريق فسار الى الشرق ، الى سوريا ، الى اراضي دمشق

قرية اسبانية بين احراج الزيتون

بين قراها وسهولها .

لقد فهمت الان السبب الذي حبب الى العرب الغزاة سكنى تلك البلاد فانهم ما رحلوا من سوريا الا الى سوريا .

اجل لايمكن لانسان عرف الشرق وسوريا خاصة الا ان يشعر امام هذه المناظر انه في سوريا ، في سهول حمص وبعلبك . لون التربة ، طرز الزرع ، صفاء السماء ، لطف النسيم ، حرارة الشمس ، شكل القرى وما ارتفع من مآذنها ، ولا تعجب يا صاحبي من وجودها هناك فهي من بقايا العهد العربي .

كان القطار يتقدم وكان التشابه يزيد فاشعر كانني عائد الى بلادي ولكن المتكلمين قربي بالاسبانية كانوا يزيلون وهمي .

وهنا قرية « افيلا » التي خلت انهـا السويدا لتشابه لون حجارتها الصوانية السوداء وهندسة بيوتها الخشنة وقد أحاطت بهـا اشجار زيتون قديمة .

وعند الحادية عشرة اخذ القطار يسير بين مساكن مدريد الانيقة . وها هي المحطة غاصة بالمسافرين والقطارات. وبالطبع وقفت برهة اتفرج وأتأمل بما كان حولي من هيئات غريبة واشكال جديدة ولغات مختلفة .

وسارت السيارة تشق الشوارع ما بين متسعه وضيقه ، وقد اكتظت بالناس والباعة الذين خرجوا ببضاعتهم مقداراً عن الحوانيت، وهنا تذكرت جلاوزة البلدية عندنا . . .

ولحسن الحظ اشعر في اثناء السفر بنشاط غريب فما كدت اصل الى مدريد بعد سفر طويل حتى اخذت حالاً بالتجوال في الشوارع الرئيسية ، فاذا هي مدينة حديثة حوت اسباب الراحة ذات طرقات رحبة نظيفة مرصفة ومنها المزفت ازدحمت فيها الجماهير والمركبات مـن سيارات وعربات وقطارات كهربائية وسائر اسباب المواصلات

الحديثة حتى انه يوجد فيها « مترو » .

ثم اجلت الطرف في بناياتها العظيمة فاذا هي ذات هندسة حديثة معتدلة ومنها ما هو على الطراز الاميركي المعروف بناطحات السحاب ومن البنايات العظيمة بناية البريد والتلغراف ووزارة البحرية وبنك « بلباو » والذي يلفت النظر في تلك المدينة كثرة المصارف والحدائق العامة وسعة الشوارع ونظافتها ، وللنظافة في هذا البلد حظ وافر ما كنت اتوقعه ، لذلك فصحة الناس على ما بدا لي طيبة والذي غلب على لون القوم هنا هو اللون الحنطي والعيون السوداء العربية ، والابتسامة العذبة وحسن الحفاوة بالغريب والكرم ، واظن ان هذه من بقايا ما ورثوه عن العرب ، ومع ذلك فعندهم الكثير من التهاون والاتكال الشرقي المشهور وهذا ايضاً اعتقد انه من « التركة » . واما اللطف وسعة الصدر فقد نالا من نفوس القوم قسطاً وافراً .

ولا بأس من ذكر هـذا الحادث مثالا عن حسن معاملتهم وحبهم لبلادهم :

قصدت يوماً زيارة المتحف الوطني وخشية الغلط سألت شاباً حسن الهندام نبيل الوجه عـن المتحف فابتسم لي وقال : هو ذاك — مشيراً بيده للبناية المقابلة — ثم زاد قائلا : انا اقصده ايضاً اتحب

ان نترافق ؟

وعندما افترقنا بعد الزيارة عرض علي ان يرافقني في المدينة وكان يوم احد قائلا لي : « وجدتك غريباً وذا فن تهمك معرفة الاماكن الاثرية في البلد فاذا احببت انا لك » .

حقاً قد دهشت من هذه المعاملة الطيبة واللطف المتناهي ، طبعاً اجبته : بسرور .

ومن ثم سرنا نخترق الشوارع الكبيرة وكان يدلني على على مراكز الحكومة والشركات ودور السينما والتمثيل . وقد لفت نظري « الجريد» سعف النخل على نوافذ البيوت والقصور فعلمت انهم يعتقدون انها تمنع الشيطان من دخول البيوت حيث توجد بنات ابكار . وهكذا علمت شيئاً جديداً ذاك ان ابليس يفر من سعف النخل!.

ثم قصدنا الى خارج البلدة واماكن النزهة حيث غصت المقاهي بالجالسين الذين يتناولون المنعشات ويستمعون الى الحاكي وهناك بساتين مليئة بالعائلات .

ثم مررنا بميدان صراع الثيران وهي من الالعاب التي اشتهر وولع بها الاسبان حتى الجنون ، وقد رأيت انها صورة صحيحة عن الملعب الروماني (آرين) بما يمثل فيه من قساوة وتوحش .

وقد عكفنا بطريقنا على بعض الاحياء المتوسطة فاذا الفقر والبؤس يملآن الارض ولم تستطع ضخامة بعض القصور حجبها .

عدنا نسير في المدينة ونشاهد المقاهي وقد طفحت بالزبائن المداومين وقد جلسوا يلعبون النرد ويتناولون المرطبات لتخفيف الحر الذي اضعف همتهم .

لم ننس ان نمر بطريقنا امام قصر الملك القائم على مرتفع يطل على سهول فسيحة وملونة ويقال انه بني على انقاض مسجد قديم . وعلى كل فهذا القصر رغم ضخامته خال من جمال الهندسة ومثله كثير .

عندما وصلنا الى ساحة « الشمس » الفسيحة المزدحمة بالناس وقف الرفيق امام انوارها المتلألئة بمختلف الالوان وقبل ان يودعني قال لي تلك الكلمة وهي في الحقيقة درس عال في الوطنية :

— ارجو منك يا سيدي متى سنحت لك الفرص بالتحدث عن اسبانيا ان تذكرها بكل خير . فودعته وانا افكر كيف يفهم الناس محبة بلادهم ويسعون لرفع اسمها عالياً .

لنترك الان شوارع مدريد وساحاتها ، لنترك الناس في اعمالهم ولنذهب لزيارة متحف برادو الشهير ولكن قبل الدخول اليه لا بد من الوقوف على عتبته وارسال هذه الكلمة :

لقد عرف التاريخ لاسبانيا في مطلع القرن السادس عشر مجداً لامعاً كانت فيه صاحبة القول النافذ وقد قبضت على صولجان الحكم كما استولت على ناصية الفنون فخفقت فوقها اعلام مدنية ذات ثقافة عالية تناولت كثيراً من النواحي ومنها الناحية الفنية التي سارت بها الشواطأ، فنبغ فيها كثيرون من الفنانين والادباء[1] الذين رفعوا راية العلوم والفنون وتركوا على لوحاتهم من آثار ريشتهم ملحاً وتحفاً هي لليوم محجة لارباب الفن وعشاق الجمال يقصدونها للتغذي من عذب موردها وطيب عنصرها، ويكفيها فخراً وفيها النابغة وابو الفن الحديث « فيلاسكز » الذي طارت شهرته مواضحى اسمه مقروناً بالنبوغ والعبقرية تاركاً لامته فخراً لا تبليه الايام .

وقد يرى الزائر امام متحف « البرادو » تمثاله البرونزي يمثله جالساً يحمل بيده ريشته والوانه ، ومن الجانب الاخر تمثالا لزميله النابغ موريللو وقد كتبت على قاعدة الاثرين هذه العبارة :

---

(١) مثل : فيلاسكز وغويا وميريللو وغراكو والعلامة العظيم سيرفانتس وكثير غيرهم .

« اعترافاً لمن خلدا بريشتيهما تاريخ امة الاسبان » .

ذكرت فيما مضى شيئاً عن النهضة الفنية ومن اثرها بضعة متاحف واهمها « برادو » ذو الشهرة العالمية الذي يحتوي كثيراً من الصور الرائعة وهو مخصص للفن القديم، لذلك هرعت لزيارته وللاستمتاع بما ضمت جدرانه من التحف الغوالي وحباً بالاستفادة قصدته باكراً .

على مقربة من وسط المدينة في حديقة واسعة الارجاء كثيرة الاشجار فياحة الازهار تعددت فيها الاحواض ترسل مياهها باشكال جذابة اقيم المتحف . وهو بناء ذو طابقين يوناني الطراز غاية في البساطة ، ولمدخله اعمدة (دوريك) يرتاح لمجموعها النظر .

وبعد صعود بضع درجات مرمرية ترى فسحة مستديرة ، ثم انت في قلب المعرض وامامك دار رحبة استطالت ، سكب النور عليها من علٍ وقد سقفت بالزجاج وعلى جانبيها غرف كثيرة .

لننظر الآن الى هذه اللوحات الجذابة ، هذه صورة من صنع « موريللو » الطفل مع الحمل ، وهذه صورة من صنع غويا ، وتلك صور غراكو وصور من ريشة ريبارا وكثير غيرها .

لندخل الى الغرف الكثيرة التي خصصت لرسوم النابغة فيلاسكيز ولم أكد ادخل وانظر الى رسومه حتى دهشت ، انني امام

فن عظيم . حقاً انه لنابغة عصره ، وهو المصور العبقري ، بل هو الرسول الاول للفن الحديث ، ترى في صوره متانة في الرسم ولباقة وحساباً في التأليف وتناسقاً في المسافات وقوة في الالوان وبساطة بالغة في العمل . . . روح سماوية تجري على لوحاته يشعر الناظر اليها انه امام فنان قدير ترك له الفن زمامه فغدا يتصرف به كيف يشاء .

لنلق الان نظرة سريعة الى رسومه ونقابلها برسوم زميله « موريللو » .

ان رسوم الاول تنبيء عن رخاء وهناء في حياته ، فالوانه زاهية بهجة ، في تأليفه رحابة تشرح الصدر وفي خطوطه اناقة ولطف وقد ولع بالنور فسكبه على لوحاته التي دلت على سرور وغبطة في نفس المصور وظهرت ابتسامته جلية على شفاه اشخاصه ولمعان عيونهم وبدت على وجوههم امارات النبل والشرف لان هذا المصور كان يعيش في بلاط الملوك وقصور الامراء وبين اهلهم وذويهم وكان من المقربين لديهم لذلك تلمس في صوره نفسية هؤلاء القوم وتعرف ما في وجوههم من نضرة ونعيم وتشعر بترفهم وتظن انك تجلس معهم وتحادثهم .

اما زميله « موريللو» فقد كان بائساً معدماً يعيش مع البائسين

والمعدمين فلا ترى في رسومه سوى اولئك الاشخاص التعساء بالبستهم الرثة القذرة قد آووا الى كهوفهم المظلمة كنفوسهم يلتهمون فضلات العيش والفاكهة . ومع ذلك فقد كان فيلسوفاً في حياته يعزي نفسه بتصوير العذراء المتألمة والمسيح المصلوب والجوراهما مكفهر . فكأن المصور (موريللو) التاعس يرى نفسه في تلك المشاهد فيتعزى بها ، ولو تمعن الانسان في الوانه وحلل نفسية (اشخاصه) اي نماذجه ، لوجدهم من الطبقة الفقيرة التي غلبت عليها الفاقة والبؤس بعكس صور صاحبه التي تمثل صورة الارستقراطية بما فيها من بذخ ورفاه ولا عجب فالفنان الحقيقي هو ذاك الذي يضع نفسه على لوحته ويبدي شعوره مستمداً من البيئة والزمان اللذين يعيش فيهما فهو مرآة الاجتماع الامينة .

وصور (فيلاسكيز) كثيرة هناك ورائعة معاً منها صور تاريخية ومنها صور هيئات اشخاص . وهذه الصور قد رسمت بمقدرة وسهولة غريبة .

ساعات قضيتها هناك مفكراً تاركا روحي تمتزج مع نفوس اولئك الفنانين بما كنت اراه امامي من آثارهم . فادركت ان الفن الحقيقي هو ما يتعدى المادة وانه لايرى في الرسم والالوان والقماش وسواها الا عواطف وتاريخاً وعظات كبيرة بل لغة تنطق بوضوح عما

يكنه صدر المصور من تأثيرات نفسية فيخلد بريشته تاريخ امته ومجد بلاده . وان ما تحطه ريشة المصور ويراعة الاديب خالد على مر العصور وكر الاعوام .

ملأت جعبتي بما استطعت ثم أقلت قاصداً متحف الفن الحديث وفن (دور الانتقال) ثم المكتبة الوطنية .

وما كدت اصل حتى جذبت بجمال السلم المرمري ، فدخلت الطابق الثاني حيث صور (دور الانتقال) هي كثيرة وجميلة لمصورين مشهورين منهم روزالي وبراديلا وبلازانسيا ، ومن الاحياء المشهورين سورولا وزولواغا وبيرمانكو وغيرهم .

وكأني بفناني الاسبان الحديثين ادركوا هذا النقص فسعوا لاصلاحه وقد افلح بعضهم مثل سورولا وزولواغا فانهم تخلصوا من هذه السلطة التقليدية ومارسوا فناً خاصاً بهم وقد أجادوا كثيراً باظهار النفسية الاسبانية مع اثبات الكثير من عادات بلادهم وطبائعهم وهذا هو الفن السليم .

ثم زرت القسم الخاص بالفن الحديث المتطرف فاذا هو مجموعة ضئيلة تعد بضع لوحات . وبعد جولة في اطرافه خرجت من هذه الزيارة مدهوشاً معجباً وكم تمنيت لو ان عندنا القليل من امثال هذه

التحف النفيسة التي تهذب العواطف وتعرض امام الناظر بوقت قصير تاريخاً ومعاني مؤثرة وتعرف ابن البلاد الى جمال بلاده وتحببه بها وبكل ما فيها .

اربعة ايام مرت علي في عاصمة الاسبان وانا مهتم بزيارة المعارض والاماكن الاثرية لا أكاد اخرج من معرض حتى ادخل اخر . وبعد انني نلت اجازة للتصوير من وزارة المعارف حيث لقيت كل مساعدة ولطف عدت مجتازاً الشوارع العظيمة التي ملي. اكثرها بالتماثيل لاسيما في الساحات العامة، اقيمت تخليداً لابطالهم ونوابغهم، كلها خطب صامتة وتاريخ يهيب بالامة الى السعي والعمل والسير الى الامام .

ان هذا النوع من الوعظ وتلك الطريقة من الخلود يجهلها الشرق تماماً فقد ثبت في دماغ الشرقي ان من مات فات مهما كان جهاده وعظمت تضحيته ، لذلك اضعنا ثروتنا التاريخية تلك القوة المعنوية الهائلة التي تحتفظ بها الامم لانها النافذة التي تنظر منها الى النور بل الى المجد الى العلاء . . . ألسنا نشعر اليوم بظمأ لمعرفة تاريخ عظمائنا والنابغين فينا ؟ اننا نبحث بالنظارة . . . ونجهد لنعثر على صورهم ولا نوفق .

اذن كيف تبعث فينا الهمة وتثور فينا روح الاقتداء والتقدم؟

لنحي هذه الناحية من الخلود ففيها اليقظة من خمول الشرق الطويل .

لنمر سراعاً بهذا الموضوع ولنلق نظرة على الخارطة فان الشوق لارض الاندلس قد زاد ولا سيما وانا اقرأ عنها كل مساء في اسفار من رادوها من ادباء الغرب وعن كثرة اعجابهم بها . هنا طليطلة ! . هي قريبة على بعد ما دون الساعتين في السكك الحديدية هيا اذن لزيارتها .

وما كاد عقرب الساعة يلامس التاسعة صباحاً حتى امتطيت القطار نحو المدينة العربية ، لكن القطار لم يسر حسب الوقت المعين حباً بعدم النظام .

وبعد مضي دقائق تحركت عربة البخار تقطع سهولا وهضابا وارضاً غلبت عليها اليبوسة والجدب . وعلى مقربة من المدينة أخذ الاخضرار يمد بساطه والخصب تظهر بوادره .

وهنا نهر ينساب وتلمع مياهه في هذا النسيج الاخضر من الارض فيتم المنظر ويبعث فيه الحياة ، نعم هو نهر (التاج) كما كان يدعوه العرب لانه في حالته كالتاج لطليطلة وظل الافرنج يسمونه « التاج » .

طليطلة المبعة

ومن ثم اخذت المدينة تبدو للعين فارتسمت حالا امام مخيلتي حوادثها التاريخية وما مثل فيها من فظائع وما دبر من مؤامرات وما نابها من انقسام بين الامراء امثال ابن ذي النون واتفاقهم مع الاغراب . . . وما هناك من حديث ذي شجون . بل انني اخذت افكر بالدماء الغزيرة التي اهرقت تحت اسوار المدينة وابراجها الماثلة امامي بما فيها من عظمة وهي لا تزال ثابتة على مر الدهور بينما اصحابها اضحوا رمماً بالية . ان هذه الابراج الجبارة لم تتصدع كما انصدعت وحدة بُناتِها ولم تنقرض كما انقرضوا . . .

الاحسن ان نترل من المركبة لان القطار بلغ المحطة ، وهي بناء جميل طرازه عربي وكنت تعرفت في المركبة الى مهندس افرنسي يقصد البلدة وهو من عشاق الفن العربي لذلك قضينا مدة السفر نطالع ونتحدث عن هذه الاثار وعن عظمة الفن العربي .

تركنا المحطة قاصدين القرية اليوم والمدينة بالامس .

حقاً ان موقعها على غاية من الجمال التصويري الذي تفردت به عن سواها من المدن فقد استقرت على مرتفع من الصخر عانقها نهر

(التاج) وضمها اليه من جميع اطرافها تاركا ثغرها الجنوبي متحولا نحو شقيقاتها الاندلسيات . ومنذ علونا على شاهق منهـا بدا لنا من حسن موقعها عجائب وجمال طبيعي نادر .

سهول تلتقي مع اللانهاية ، الوان متنوعة ، اقسام مختلفة ، خطوط متباينة ، سماء صافية سطعت شمسها وغرد الطير باكياً طليطله ايام عزها ، وسال نهر (التاج) فكان عبرتها المرسلة نحو شقيقاتهـا الاندلسيات ومنها الى البحر المحيط حيث يتلاشى كما تلاشى مجدها من قبل .

وهنا اجتزنا الى الضفة الاخرى من النهر فوق جسر عظيم يدعى (جسر القنطرة) (Alcantarah) وهو ايضاً من بنيان العرب كالسور والابراج التي نشاهدها امامنا .

نعم من هنا بدأت تظهر علينـا طلائع الفن العربي واثاره المتفرقة واشلاؤه المتبعثرة هنا وهناك .

سرنا في ازقة طليطلة الضيقة والمبلطة على غير نظام ننظر الى بيوتها الشرقية فنظنها تكاد تهوي علينا . وقد برزت نوافذها الدمشقية المحجبة (بالشعاري) ثم استقرت عليها بعض قطع ازهار فاقعة الالوان .

ثم هناك الابواب ذات القنطرة وقد ضربت بالمسامير الضخمة ولها مصراع عربي . انني في الشرق ، في سوريا ، بل في ازقة صيدا او دمشق ! . . .

وسارت الناس مهرولة تتزاحم لضيق الطرقات وقد عرضت الباعة في الساحات الصغيرة بضائعها على الارض ما بين اقمشة قوية الالوان زاهية ، وبين خرضوات كاساور وأقراط وبجانبها بائع الخضار والفاكهة ثم بائع المرطبات و (الليموناضه) (يلعلع) بصوته .

وقف رفيقي مدهوشاً عندما شاهد في تلك الساحة الصغيرة بعض قطع اقمشة معروضة و (بقج) مقصبة موضوعة فوق سرير حديدي فظنها تابوتاً لميت ، وما لبث ان عرف الحقيقة فهز برأسه مستنكراً ذوق ذاك البائع الفظيع .

(ومن الصناعات الدقيقة التي خلفها العرب هنا واشتهرت بها هذه المدينة عمل الاسلحة والاواني النحاسية الجميلة والحلى الدقيقة وغيرها كلها مطعمة بالفضة او بالذهب (على الطراز الدمشقي) فصار السياح يقصدونها لاقتناء شيء من تحفها ودقيق صناعتها العربية النادرة . وبما ان الصديق كان من المولعين بمثل هذه الاشياء . قمنا بجولة في الاسواق الخاصة للتفرج على ما فيها من كل مليح وثمين .)

ومن اغرب ما سمعته هناك ان العادات الاسلامية اثرت في نفوس اهل تلك البلاد لدرجة انه توجد للآن طائفة منهم تمارس صلاتها في احدى الكنائس بشكل صلاة المسلمين تماماً فهم يسجدون على الارض ويرفعون ايديهم نحو السماء الى ما هنالك من العادات الاسلامية ؛ ويدعونها (موزاراب).

قصدت زيارتها ولكن لسوء الحظ كانت الكنيسة مقفلة ولا تقام هذه الصلاة الا باكراً .

ومن الاماكن الاثرية فيها بعض اقسام السور والحصون التي لايزال محفوظاً منها بعض الشيء ، ومنها : باب الشمس . قصدته فاذا هو احد مداخل المدينة ، باب كبير حسن الهندسة متناسق الاجزاء يظنه من يراه باباً لاحد القصور الفخمة لا باباً لقلعة نظراً لما فيه من دقة الصنعة .

ثم زرت الكنيسة الكبرى التي كانت مسجداً شهيراً فاذا هي اليوم من حيث الهندسة مجموعة متناقضات هندسية ، فيها العربي والقوطي والروماني واليوناني . فهي ولا شك بحالتها هذه تمثل تاريخ البلاد الاسبانية . . . اما هذه البيعة فهي عظيمة شاهقة البناء ذات افنان فسيحة غنية بالنقوش .

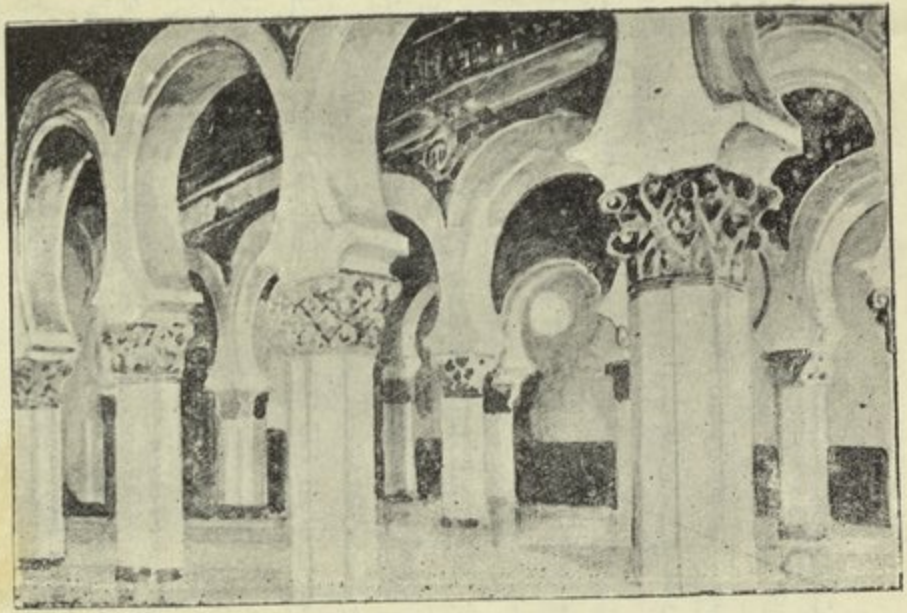

كنيسة سانتا مريا ان بانكا في طليطله

(ورغم ضيق الوقت لم انس زيارة كنيسة السنتا ماريا ان بيانكا . زرتها فاذا انا بين آثار عربية لكن لها نسقاً خاصاً بسيطاً فخماً فيه قليل من نقوش مشجرة ، وهي مقسومة الى اربعة اروقة بقناطر مستديرة القوس وقدطليت اجمعها بالكلس فظهرت باون ابيض ناصع . وهناك على احدى جدرانها لوح كتب عليه : « ان هذا البناء كان كنيساً لليهود اخذ على اثر خروج العرب من الاندلس وحول الى كنيسة وهو الآن متحف وطني » .)

ولم احب ان اغادر طليطله قبل ان ازور مسكن الفنان الاسباني المشهور كريكو فهرعت لزيارة مسكنه ، وهناك في وسط حديقة لطيفة تبعثرت في اطرافها بعض آثار ، بني بيت قديم يشبه بيوتنا الشرقية كثيراً ، دخلته وشاهدت ما حواه من الصور الزيتية وشاهدت غرفة المصور الخاصة وسريره والمطبخ وجميع حوائجه . وبيته هذا ككل بيوت الفنانين اشبه بصومعة راهب لا هم له من الحياة الا ان يفكر في اسرار الطبيعة والحياة العالية والجمال الراقي .

ولاجل متابعة السفر الى بلاد الاندلس كنا مضطرين ان نعود لمدريد ، لانه لا يوجد طريق الا منها .

وعند الساعة السابعة مساء ، في تلك البرهة ، كانت الشمس

تودع النهار بنظرة دامية ، ركبت القطار عائداً نحو مدريد وانا اردد في جمال طليطله :

زادت طليطلة على ما حدثوا بـلد عليه نضرة ونعيم
الله زينه فوشح خصره نهر المجرة والغصون نجوم

وحينما اسدل الليل ستاره ركبنا القطار واخذنا نتجاذب اطراف الحديث ، حتى بلغنا مدريد او (مجريط كما كانوا يسمونها) فسرنا في شوارعها التي كانت تشع بالانوار الكهربائية وقد كثرت فيها السيارات والقطارات وعلت الضوضاء . ودعت رفيقي وعدت الى فندقي القريب من المحطة .

وكانت دنت ساعة الطعام فجلسنا الى المائدة ، وبمناسبة الطعام اقول انه استرعى انتباهي لاول مرة عندما جلست لتناوله انه كان وفراً جداً بعكسه في المطاعم الايطالية ولا سيما الافرنسية حيث الانسان رغم ما يدفعه من فاحش القيمة ، فانه لايرى في الصحون الكبيرة الفارغة الا زخرفة وزينة وحركة بلا بركة ، ولا شك فان هؤلاء امتازوا عن غيرهم بفن الزخرفة والاعلان . . . لذلك عندما اصبحت في اسبانيا لم ألبث ان فوجئت بذلك الخصب والكرم ، وقد ادركت بعدئذ انني في بلاد كانت فيما مضى عربية ولا تزال تزف على

معظم عوائدها روح شرقية .

وكانت ليلة جميلة ساكنة فخرجت لحديقة (سيبللا) القريبة وقد غرست بطراز حديث ، في بعض نواحيها نوافر تقذف المياه فتقتل ما في الجو من حرارة ؛ والناس في الحديقة ما بين جالس على المقعد يقرأ صحيفته وآخر مع زوجته واولاده وهناك اطفال يلعبون فرحين ثم شاب مع فتاته يسيرون بتمهل والابتسامة على الثغور والفرح في القلوب والآمال في النفوس .

وها انا امام سينما في الهواء الطلق يعرض مشهداً وطنياً والجميع يهتفون للجيش والعلم والتضحية لاجلها ، فتذكرت عندئذ ما تعرضه عندنا شركات السينما من المشاهد المخجلة . . .

وما كادت تبزغ شمس ٢٣ تموز حتى قصدت محطة (مديوديا) وهي باب بلاد الاندلس ، ولذلك فهي محطة حقيرة لا تليق بعاصمة كمدريد ومن هنا بدأنا نرى الاهمال والتأخير مع أن ارض الاندلس اغنى اراضي اسبانيا وهي كنزها الثمين .

وقد انحشر الناس في باحة المحطة واكثرهم من العمال والمزارعين وبعض السياح وقد ازدحموا على شباك التذاكر بدون نظام الا نظام الرفس واللطم . . .

وقفت هنيهة اتأمل هذا المشهد ، مشهد القرويين الفقراء الطيبين .

اخذت مكاني في المركبة وكان فيها بعض المسافرين وطبعاً حسب عادة اهل تلك البلاد في كثرة الاهمال فلم يتحرك القطار من المحطة الا بعد مضي مدة عن ميعاده .

واخيراً سار القطار ببطء بين تلويح المناديل وتحريك القبعات وبين دموع وابتسامات وانفجار قبلات وغمزات المودعين والمودعات . . أخذ القطار يبتعد عن العاصمة وبدأت تتغير علينا المناظر وقد ظهرت مدريد عن بعد في قبابها وبناياتها الشاهقة ، ثم اخذت تتلاشى بين الضباب فبدت كأنها تلك القصور الخيالية التي يضرب فيها المثل ، كقصور اسبانيا .

اتجهت نحو النافذة متنشقاً نسيم قرطبة وبلاد الاندلس مدفن المدنية ، اجل انني ازور ارض المجد المندثر فلعل في زيارة الاموات عبرة للاحياء ، بل ربما كان سكون الاموات ادعى للعبرة والتفكير من كلام الاحياء. الاموات ورب نظرة حكيمة خير من حديث طنان .

باب الشمس في طليطله

الى بلاد الاندلس الى الحج الى بلاد المجد المفقود .

وعلينا ان نعلم انه لا شيء أدعى للصبر من قطارات السكة

الحديدية في تلك البلاد فكأنه كتب عليهـا العجلة من الشيطان .
ولكي اعزي نفسي كنت اقول :
ان هذه القطارات لاشك هي خير من ركب البغال واسرع من الحمير . . .

وقد كان نهار رق نسيمه ، وصفت زرقته ، وشع نوره ، فاضحى كل ما فيه زاهياً لامعاً وقد كثرت الالوان والانوار ، ومنذ دخلنا ارض الاندلس وعلى مقربة من اراضي قرطبة قال لي من كان معي مـن الاسبان : « الآن دخلنا ارض الاندلس ، أرض الخصب ، والثروة والجمال » .

وبالحقيقة فان ما كنت اشاهده من جمال ونضارة والوان حية كثيراً ما أثار بي الرغبة لتناول الريشة والالوان لاثبت بها بعض ماحوته هذه الاراضي من مزارع بديعة .

والذي زاد في جمـال ذلك ، نهر « الوادي الكبير » (Quadalcavir) وهو بحق نهر من الذهب كبير فقد انساب في تلك السهول المترامية يغدق عليهـا من نعمه ففاضت بالنعم واحيت الارض بعد موتها ، فانبتت زهراً وفاكهة وخضرة ونعيما .

كنت انظر الى يميني فارى حقول الكرمة امتدت الى اللانهاية

ثم التفت عن يساري فاشاهد بساتين الليمون واللوز واحياناً اشجار الصنوبر وطوراً مسافات كبيرة غرست بالحنطة ولكن اكثر ما كانت تقع عيني عليه سهول وهضاب طرزت باشجار الزيتون بخطوط مستقيمة ومنهـا متعاكسة ، ولكن قليلا ما كانت تمر عيني على ارض ليس للخضرة فيها نصيب .

ونهر الوادي الكبير يسقي بمياهه تلك الاراضي ولا ينضب وكأن الطبيعة احبت مكافأته على سخائه فانبتت على ضفافه أشجار الحور والصفصاف وزينتها الدفلة بزهرها الجميل الذي رسم على تلك السهول قلادة من زهره الوردي ، توجت ورافقت النهر في مسيره وعطفاته فكأنها تعانقه ولا تطيق فراقه حتى تركت ظلها على سطح مياهه وانضمت معها الاشجار الاخرى فاتى كل ذلك منظراً بديعاً لم تر عيني اروع منه وابهى وكأن النهر سر بذلك فجرى يتمتم بخريره انشودة مديح وثناء شاركه فيها طيرها والنسيم .

يا أهـل اندلس لله دركم ماء وظل وانهـار واشجار
لاتختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النـار

ولا يجب ان نظن ان هذا المشهد على مسافة قصيرة بل هو منظر اغلب ارض الاندلس، هو مسافة ايام متوالية . ولا اكون مبالغاً

اذا قلت ان ارض الاندلس بخصبها وغزارة مياهها وما فيها من خيرات هي الفردوس الارضي الذي يدر لبناً وعسلا بل كنوزاً تخرج الذهب والفضة وكل انواع الخير !

وهل من عجب بعد ذلك ان نرى في ذلك الفردوس قصور اشبيلية وغرناطة وقرطبة تلك القصور الخيالية ؟

ان تلك الجنان حرية بتلك الصروح الفخمة ، وان مثل هذا الخصب النادر يبني قصوراً جنونية من المرمر رصعت جدرانها بالفضة والذهب وسقوفها بالعاج والابنوس .

انني اتحدث عن جنان وقصور ثم كنوز ، اذن فما هذا الفقر الهائل الذي اجتاح البلاد الاسبانية اليوم ؟

قروي

ولا يجب ان تغرنا بعض بنايات مدريد العظيمة فهي ليست من نتاج ارض اسبانيا بل جلها من ذهب اميركا . انني لم استطع حلاً لهذا اللغز العجيب الا بعد الثورة الاخيرة . . .

لقد ادركت كيف ان العرب بحسن ادارتهم استطاعوا جعل هذه البلاد جنة وشيدوا فيها تلك المعجزات الفنية رغم بذخهم لكنني لم افهم سبب هذا

الفقر العظيم والبؤس الهائل وان ارى بـلاد الاندلس خاصة ملأى بالمتسولين والبؤساء .

لقد اتفق اعظم المؤرخين ومعهم اهل الاندلس على القول : انه منذ رحل العرب عن بلادهم رحلت معهم النعم والازدهار وحل مكانها البؤس والدمار .

كانت الاندلس مركز الحضارة وعاصمة المعارف والصناعات ومبعث الحركة الفكرية والتجارية في العالم . امـا الآن فالجميع يعرف عن حالتها الشيء الكثير !! . . . وفي قول الكاتب الافرنسي كلود فارير كفاية :

« لقد سعدت الاندلس في عهد العرب ولم تسعد الا في عهدهم اذ ان ملوك الاسبان دمروها واغرقوها في نجيع من الدم ، اجل ان العرب وحدهم عرفوا ان يجعلوها غنية طيلة قرون عديدة ولم يكادوا يجاون عنها حتى تحول حالها واصبحت دماراً ، ذلك ان ملوك الاسبان حذقوا السياسة دون ان يكونوا اداريين » .

لندع هذا ولاشكرن رفيقي الاندلسي في القطار وهو يدعوني لتناول قطعة حلوى او سيكارة ، عادة شائعة وطبيعة في اهل البلاد هي حب الضيافة دون سابق معرفة .

قرطبة دار العلم

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، فاول ما أطل علينا من قرطبة مآذن مسجدها الشهير وقبابه وقد خضب الشفق الملتهب اعلاها بالوانه النارية تاركاً بعضها على سطوح المدينة وقد غمر باقيها بحر من الظل البنفسجي تلاشى مع الظلام .

نحن في عاصمة عبد الرحمن الداخل ، في مركز خلافة

طريق في قرطبة

الامويين في الاندلس حيث كانت ارقى حضارة في اوروبا .

نزلناها فماذا وجدنا ؟ بلدة صغيرة هي اشبه شيء بالقرية ذات موقع طبيعي فاتن امتدت على مستوى من الارض ، وأحاطت بسهولها من الغرب والجنوب جبال مكللة بأشجار الزيتون وقدمر في طرفها نهر الوادي الكبير بسكون وجلال .

قرطبة اليوم بلدة بسيطة وقديمة ما خلا بعض ابنية حديثة لم تقدر ان تزيل عنها المسحة الشرقية الناطقة في جوها وسمائها النقية وشمسها اللاهبة ، وهندسة بيوتها البيضاء الناصعة حيث تدلت من نوافذها الشرقية ازهار الياسمين والفتنة وغيرها ، واستقر على بعضها (نعاره) فخار لتبريد الماء ويدعوها الاسبان جرة . حتى ان شكلها ونقوشها تشبه النعارة عندنا .

وهناك طرقاتها الضيقة والمتعرجة خلت من المارة الا من شخص او اثنين يسيران في ظلها متثاقلين لقلة الاعمال ورخص الوقت وجو ملي بالكسل والخمول . . . اما المقاهي فكثيرة هناك ككثرة الزبائن فيها ، جلسوا يشربون ويلعبون وينامون . . .

رأيت قرطبة اليوم بهذه الحالة المفجعة وعدد سكانها لايبلغ الاربعين الفاً ، ثم تأملتها يوم كانت عاصمة الحضارة ومركز العلوم

والآداب والصناعات
والفنون . أول بلد
زراعيـة فدهشت
وسالت عبراتي . . .
اذ وجدت ان معاهد
الآداب والطب
والكيمياء والهندسة
وغيرها وقد غصت
دورها بالوف الطلاب
اي نعم اصبحت اليوم
ويا للاسف مقاهي تعج
باللاعبين والشاربين
وكثير مـن النائمين
ايضاً . . .

اجل تأملتها يوم
كانت فيهـا اعظم
الجامعات ومستشفيات

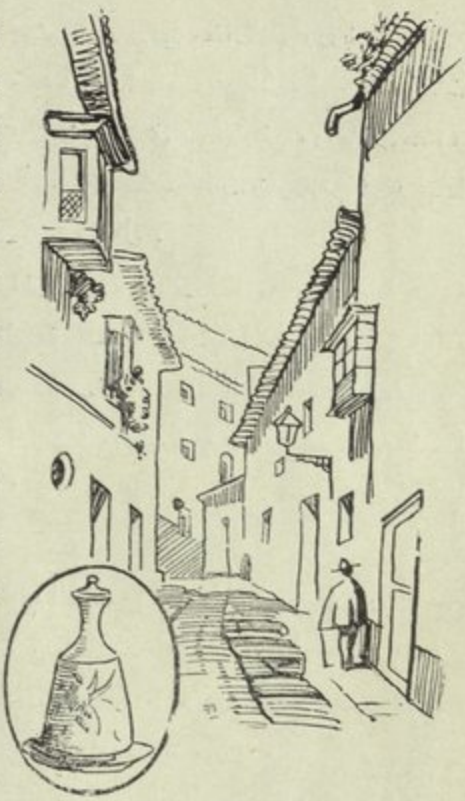

طريق في قرطبة

العالم والمخترعات تأتي بالاختراعات المفيدة ، انظر الى كثرة مصانعها تخرج أحسن الحلي واجودها والبسط والاقمشة والاسلحة الخ . . . امثل المكاتب العديدة ثم ارى العلماء منهمكين في ترجمة علوم اليونان وتشريع الرومان وفلسفة الهند».

أنظر اليها وكان عدد اهلها يومئذ يبلغ مليوناً من البشر ، اتأمل كل ذلك ثم ألتفت فلا أجد امامي سوى مقاهي وطرقات حقيرة خالية خاوية وبيوت عشش الفقر فيها ، بلد خلا من كل شي الا من الكسل والجهالة ، ثم تابعت طريقي مردداً قول احد كتبة الغرب[1] المنصفين :

« اننا نأسف لحضارة العرب الضائعة وان رجال الاسبان الذين بلغوا من البطش اكثر مما بلغ العرب من الحكمة والادارة حالوا دون تلك الحضارة الحقيقية واوروبا ودفعوها بعيداً عنها ، فبئس ما فعلوا ؟؟!! . . . »

ثم سرت متأملا مآذنها ، فاذا هي قريبة من الطراز الشامي

---

(١) كلود فاريز الاديب الفرنسي المعروف .

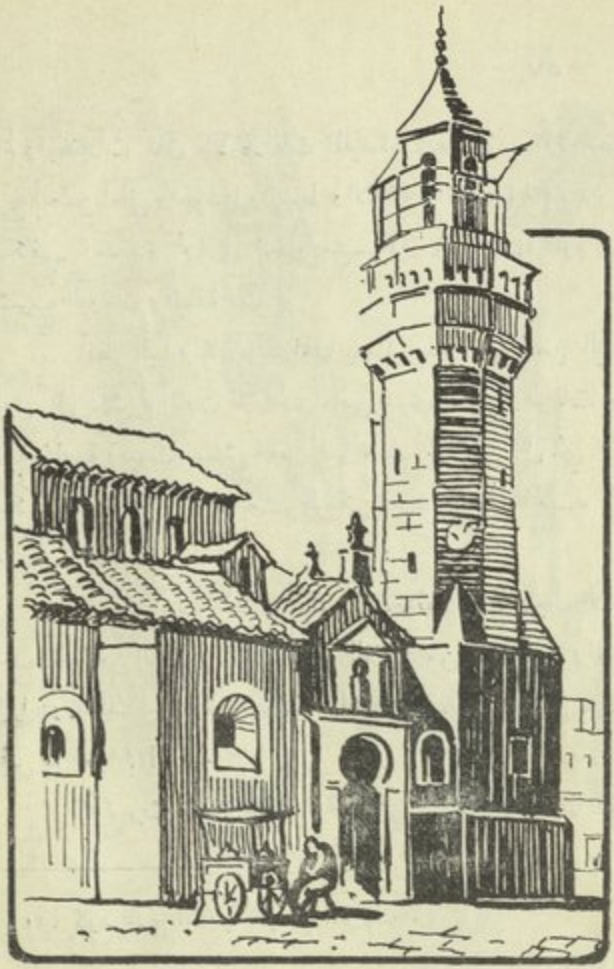

مأذنة كنيسة سان نيقولا

لان عرب سوريا حينما نزلوا بلاد الاندلس اقامت كل فئة منهم في بلدة ما عدا قرطبة فكانت مركزاً للزعماء ، فاهل دمشق نزلوا « غرناطة» واطلقوا عليها اسم دمشق ، واهل حمص هبطوا « اشبيلية » وسموها حمص ، واهل فلسطين حلوا في « شريش » ودعوها باسم فلسطين ، واهل قنسرين نزلوا « جيان » واطلقوا عليها اسم قنسرين الخ . . .

وهـذه ، أليست مأذنة شامية مسدسة الشكل ؟ لا هي لكنيسة (سان نقولا) وتلك ثانية مربعة الشكل . انها لا تزال على حالتها الاولى . انني انظر الى مآذن دمشق . . .

(وهنا دار شامية لندخلها ، جدرانها بيضاء جد ناصعة تدلت من فوقها الازهار وكذلك فوق الباب العربي الصغير . ثم هناك الدار مكشوفة رصفت ارضها بالبلاط وتمنطقت اسفل جدرانهـا بالقيشاني ذي الالوان اللماعة ومثلها غرف البيت ، وقـد غرس في وسط الدار شجر البرتقال وسواه ، وصفت حولها (زراريع) وقساطل الزنبق والياسمين ، وفي الوسط قامت فسقية لطيفة تبعث مياههـا بسكون فتخفف ما في الجو من حرارة وجفاف)

ولكن لننظر قليلا الى تلك النساء الجميلات ذوات البشرة السمراء وقد جلسن امام باب الدار ينظرن الى المارة بعيونهن الكحلاء

وقد هذبن شعرهن الفاحم كعيونهن الناعسة وزينه بباقة من الياسمين ملأ عبيره جو البلد وعلى رأسهن مشط كبير ثم ارسلن فوقه وشاحاً ابيض مزركشاً تدلى على الاكتاف . اما على مرتفع الصدر وعلى مقربة من النهد فقد برزت فلة فياحة، وفي اليد مروحة عظيمة تطردبها الحر بكسل ودلال .

اندلسيات في فناء بيت عربي

وسار في الطريق بائع البوظه وتبعه بائع الليموناضه يضرب بصجونه وينغم بصوته بلحن عربي ، والخلاصة نحن في طريق البزوريه في احدى طرقات العاصمة الاموية . . .

واخيراً اسرعت الخطى ميمماً مسجد قرطبة الجامع المعروف هناك (موسكيتا) وهو اليوم (كاتدرائية) .

وعن بعد كنت اسمع صوت نواقيسه التي كانت تدوي في الفضاء فيسمع لها انيناً .

ولا بد من لمحة سريعة عن تاريخه : قامت الثورة في الشرق وتغلب العباسيون على بني امية فاعلن عبد الرحمن ملكيته في قرطبة عام ٧٥٦م ، كانت بدء مدنية دامت ثلاثة قرون ونيف بلغت فيها اسبانيا أعلى ذرى الحضارة والازدهار .

تم لموسى وطارق فتح تلك الامصار باجمعها بمدة قليلة جداً لا تبلغ العامين بعد معارك معدودة لان اكثر المدن كانت تبادر لفتح ابوابها امام العرب الذين يعاملونهم برحمة وعدل فوق الحد . وكان في مقدمة من استقبلهم ووالاهم مطران اشبيليا وكثيرون غيره الذين كانوا يشعرون بما كانت تتحمله بلادهم من مظالم وفظائع القوط الحاكمين .

وشاء عبد الرحمن الناصر لدين الله الملك الجديد في قرطبة

جزء من مسجد قرطبة الخارجي

ان يستميل العرب اليه وان يحبب اليهم السكن في تلك البلاد الجديدة وليصرفهم عن الافتكار بالعودة الى بلادهم ، بنى لهم في القرن الثامن هذا المسجد (كعبة الغرب) بل المعجزة المعمارية ، وتمت للقرن التاسع بالاضافات وذلك في عهد الحكم الاول والثاني والثالث ، اي استمر العمل فيه ما يقارب مائة سنة . . . ومن دواعي الفخر ان نعلم ان واضع تصميمه وجمال هندسته هو عبد الرحمن نفسه . ذاك الملك الشاعر الرقيق ، العالم الحر ، القائد العظيم ، السياسي الحاذق الذي ابرم اتفاقات هامة مع اعظم دول اوروبا فجعل سفراءهم تتوافد الى قرطبة تحمل اليه اثمن الهدايا . واذا شاهد الانسان عن كثب الهندسة العظيمة التي انشأ عليها المسجد يمكنه ان يدرك اي نابغة عظيم كان عبد الرحمن وعندئذ يفهم حقيقة الملوك .

ولكن لم يكن عبد الرحمن وحده ولوعاً بالفن الهندسي ، لان التاريخ يدلنا على ان الثقافة الفنية كانت شاملة ايضاً لطبقة الاطباء والعلماء والفلكيين وغيرهم ، وكان من كبار الفلكيين وعلماء الهيئة مثلا ابو جعفر السلمي ، ثم النباتي المشهور ابو عباس بن مفرج ، وابن جابر الرياضي المشهور والوزير ابن الحاج والطبيب ابن خاتمة وهو من عرف الجراثيم واثبت العدوى . قيل انه كان حسنة من حسنات

الاندلس والخلاصة كان اكثر هؤلاء الناس ممن لهم معرفة تامة عدا اختصاصهم ، بالهندسة والموسيقى والشعر وفنون الادب . . . اماعند اهل اليوم فاصبحت هذه الامور تعد ضياع وقت! .

لذلك كان يلقب عبد الرحمن الثالث « بميسين [1] » العلوم والآداب والفنون في ذاك العهد الزاهر كاهله . . .

امـا المسجد فقد بني من تراب قرقشنه (قارقسون) التي ملكوها في بلاد الغلوا ؟! . . نعم !!

« المهم ان جامع قرطبة يعد اعظم مسجد في العالم ، وهو آية من آيات الفن المعماري ، يقصد زيارته الوف من السياح من اقاصي البلاد للتملي برائع فنه . قد بنى عبد الرحمن مسجده هذا كما ألمعت آنفاً لغاية سياسية عميقة كي يصرف المسلمين عن التفكير في العودة الى بلادهم لذلك بذل في بنائـه من الجهود ما لا يوصف ، وصرف من الاموال المبالغ الطائـلة وزينه بالنقوش من قيشاني ونسيفساء بطريقة تأخذ

---

(١) ميسين : هو نديم اغسطس قيصر الروماني استعمل نفوذ مولاه لترقية العلوم والمعارف والفنون واغدق نعمه على العلماء واصحاب المواهب فاصبحت كلمة « ميسين » تدل انه حامي ونصير الاداب والفنون .

بالالباب، حتى انه رصع محرابه بالاحجار الكريمة وحلاه بالذهب والفضة فأتى عجيبة فنية باهرة وبهجة للناظرين .

ان الباحث المنقب يلمس في هندسة هذا الجامع ومن خلال خطوطه الجامدة بظواهرهـا الفنية ، روح الجد والرصانة والايمان المتين ، ويدلنا كل قسم فيه عن جـد وبأس وقوة عزم بالغة ، يذكرنا شيئاً منها بالروح الروماني الحربي بما في اعمدتهـا من فخامة وخصوصاً تاج الاعمدة الرهيبة ، ولكن الرومانية قاسية جافة ، بينما العربية لطيفة لما تحمل في طياتها من رقة في النقوش والفسيفساء الزاهية التي تخفف كثيراً من قسوتها وان لمن عظمة الفن ومعجزاته الجمع بين القوة والرقة ، وهذا ما نراه ماثلاً في جامع قرطبة الشهير الذي يمثل فناً ونسقاً خاصاً من فنون العرب الكثيرة في الاندلس مما يدل عن مهـابة ووقار ، صفات العربي يومذاك ، فاتى مثالا ناطقـاً عن نفسيتهم واخلاقهم الرصينة .

لقد قرأت عنه الشيء الكثير وكنت اقول في نفسي : هذا من مبالغات الكتاب وخيالات الشعراء . ولكن وقوفي امام مفاتنه

اكد لي ان كل ما قرأته عنه انما هو شيء ضئيل جداً ، وقد عذرت الكتبة وخيال الشعراء اذا هم لم يفلحوا بان يحيطوا بوصفه لانه من المعجزات .

ولقد صدق الخليفة عبد الرحمن حيث انشد :

همم الملوك اذا ارادوا ذكرهم من بعدهم فبالسن العمران
او ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تقادم عهده أضحى يدل على عظيم الشان

دخلت الجامع فاذا انا في غابة من المرمر ضمت ما يربو على الف عمود من مختلف الالوان والاجناس ، علتها حنايا مزدوجة ونهضت فوقها قباب فيحاء واسعة الارجاء .

لنقف وننظر الى هندسة تلك الاعمدة العجيبة التي تبدو لنا كيفما نظرنا اليها ومن اي ناحية رمقناها خطاً مستقيماً ينتهي بمحراب جميل او باب منقوش .

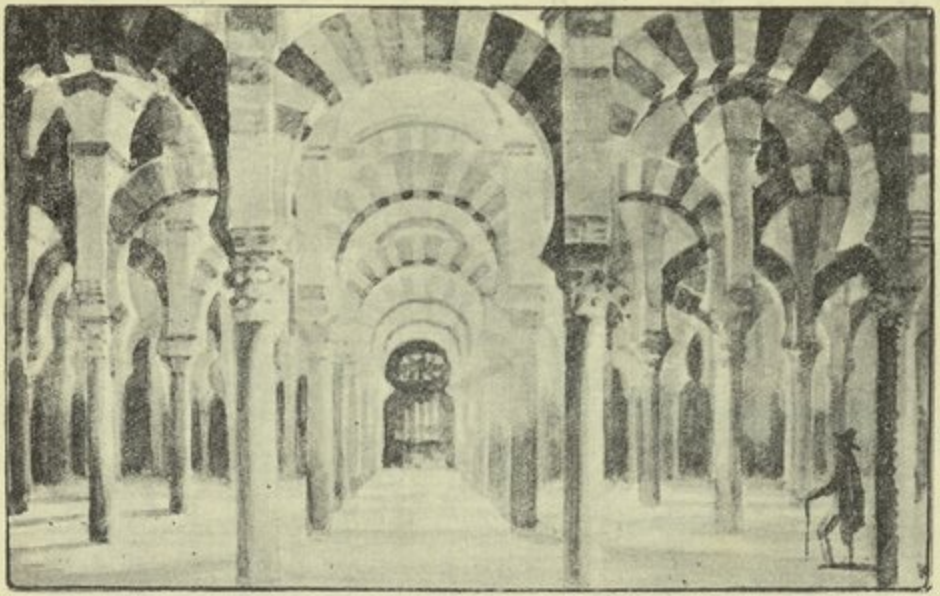

جزء من داخل جامع قرطبة الشهير

﴿ بل لنقف ونتأمل قليلا في معجزات الفن العربي : قناطر مشبكة كانها ادواح حملت من النقوش الدقيقة المشجرة ما هو أشهى من الاثمار ، او كأنها غابة من النخيل الظليل في واحة غناء ،وارفة الاغصان ، وهناك على الجدران ، رسم وحفر ونقش وترصيع ووشم غاية في الفن والابداع ، تحلت بالذهب ووشيت بالالوان الزمردية والقرمزية والسماوية . الوان باهرة كالشرق بانواره المشعة ، وزرقة سمائه الصافية الاديم ، انعكست في نفس العربي فاحبها وراح يعرضها آيات عجيبة على جدران معبده او قصره فاتى بشعر من الالوان والخطوط والتناسق لا يقل رقة وانسجاماً عن شعره في البيان .

وبين هذه الروائع انزلت آيات الكتاب الحكيم فاذابها الذكاء ودقة الزوق على تلك الجدران فاذا هي سحر يأخذ بالالباب وموسيقى من الخطوط والالوان كلها تناسق وانسجام .

اضف الى جمال مبناها سمو معناها فهي تأمر بالعدل والوفاء والشجاعة والانفة وتقضي باحترام الضعيف ، وهي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وهذا المحراب ، أليس هو تحفة وفتنة ؟ رسوم ازهار لطيفة واغصان دقيقة ناعمة ونماذج مبتكرة غشيت بالذهب واكتست حواشيها

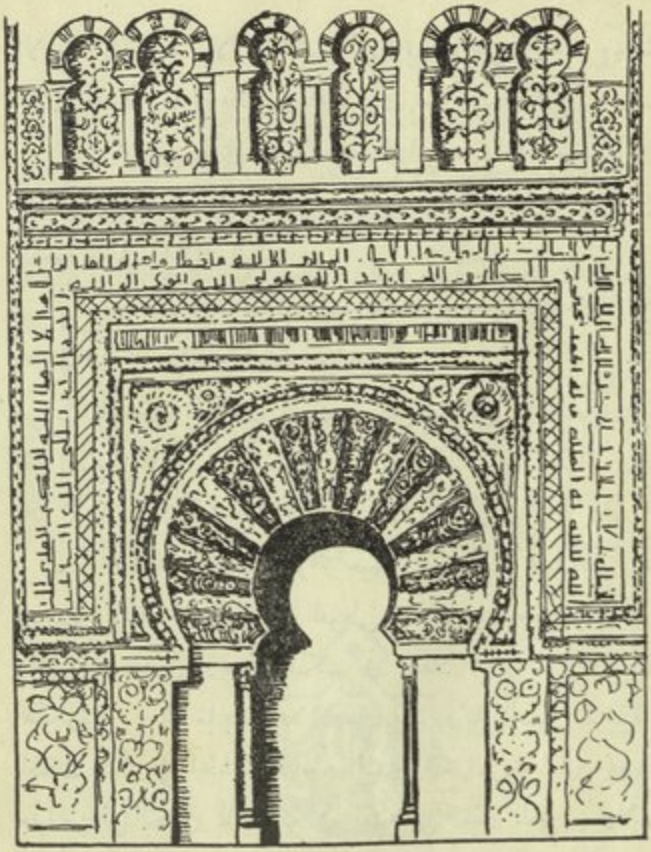

المحراب - جامع قرطبة

بالاحجار الكريمة والالوان الحية النيرة ، فاذا هي رائعة ، مدهشة ، وقفت عندها دقة روفائيل وفنه ، واين منها ميكالينج ورمبرانت !!

انه فن علوي قصرت عنه كل الفنون ، انه مبتكر ، نادر له الشعر والعظمة والجمال ، هو من بنات افكار العربي « الحر » ذي الشعور العالي والخيال البعيد .

وقفت بالمحراب وتأملت المنبر ، ثم مضيت بالمسجد اتخافت بصوتي وانشد شيئاً من آيات شوقي :

مررت بالمسجد المحزون اسأله ... هل في المصلى او المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر احرار وعبدان
فلا الاذان أذان في منارته ... اذا تعالى ولا الآذان آذان

ولشد ما يدهش الزائر حينما يري في وسط هذا الفن الشرقي البحت ، معبداً على الطراز « القوطي » يتنافر جداً مع كل ما حوله . واني اترك للقاري. وحده الحكم في انتقاد هذا المزج وسخافة الفكرة . . . اما ما يشعر به الانسان عند رؤية الصور الزيتية التي الصقت هناك على الجدران وامام تلك الروائع العربية ، فما يجعله ينفر جداً من فن التصوير لما يتركه في نفسه من التأثير السي. . ولا ريب بان الفن الحقيقي يسخر من الفن . . . ولا اكتم عظيم حيرتي عندما

حدثتني نفسي بتصوير شيء هناك . . .

. . لنترك الان الفسيفساء والقيشاني والزخارف وما هناك من نقوش دقيقة ومن عجائب ومالا ادري . . . ولنلق نظرة عامة لنرى كيف ان النور والظل لعبا بين تلك الاعمدة ، بل الغابة التي لا نهاية لها ، وما هناك من انعكاس وظلال وانوار متعاكسة وابعاد واعماق جعلت من المنظر جنة خيالية ينكر انها صنع بشر ، ان هو الا سحر مبين .

كنت انظر الى هذا المكان فادهش ثم اسأل نفسي بعد ان رأيت ان اكثره بات متهدماً خراباً ، كيف كان منظره يوم كان مصاناً بحرمته ، تضاء فيه الالاف من المصابيح يشع بالانوار ويعج بالمصلين ؟!

جزء داخلي من جامع قرطبة مع المحراب

اشبيلية مدينة الطرب

وعند المساء حملني القطار الى اشبيلية فوصلناها ليلاً ، وفي الغداة باكراً جداً رحت اجول في شوارعها فاذا هي مدينة عظيمة بل ارقى مدن الاندلس اليوم واكثرها ازدهاراً وسعة ، فيها بنايات فخمة وحدائق متسعة جميلة يبدو على بيوتها الطراز العربي — المسيحي وبعضه عربي خالص ولكن تظهر على مجموعها الروح العربية التي ترف على جوها الشرقي وقد ملئت المدينة بالآثار العربية كبقية بلاد الاندلس . ويوجد فيها القسم القديم فهو لا يزال محافظاً على صبغته في الازقة والبناء واسماء الشوارع . اما هيئات اهلها وعاداتهم سيما النساء منهم فهي عربية خالصة .

والاشبيلية اكثر دلالاً واناقة من سواها من النساء الاندلسيات ، كذلك اهل اشبيلية امتازوا بحبهم حياة اللهو والسرور ولهم ولع بالطرب والضرب على الآلات الموسيقية . ويظهر ان هذا الميل متأصل فيهم منذ القدم ، وكان اذا مات موسيقي بقرطبة في زمن العرب واريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية ، واذا مات عالم باشبيلية

واريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، لذلك قيل ان قرطبة اكثر بلاد الله كتباً واهلها اكثر الناس شغفاً بالعلم واليك ما قيل فيها :

باربـع فاقت الامصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان اثنتان والزهراء ثالثة والعلم اعظم شيء وهو رابعها

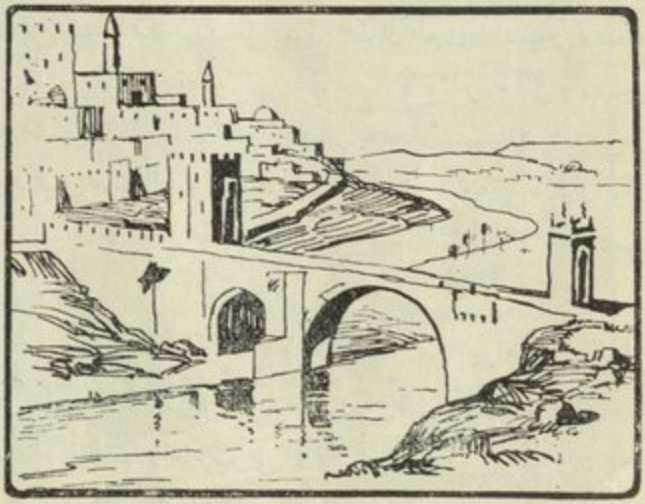

جسر (القنطرة)

الخلاصة اننا نبحث عن الآثار الفنية ، اذن هيا الى زيارة

قصر الزهراء ، وقد مررت بطريقي امام الكاتدرائية وبرجها المسمى (جرالدا) وهي مأذنة عربية عظيمة مربعة الشكل على نسق مآذن المغرب تماماً حتى نقوشها ، وهي باقية من المسجد الذي بناه المنصور عام ١١٩٥ وتعد أقدم بناء عربي هناك ، مبنية من الآجر الاحمر وقد كان في ذروتها قبلاً كرة من النحاس المذهب شديد اللمعان ، اما اليوم فيرى الناظر في اعلاها تمثال الايمان .

زرت الكنيسة وهي عظيمة ذات طراز قوطي وبعضه عربي لها حنايا شاهقة ورحبة ، ومجموعها يحمل كثيراً من الوقار . قد دفن هناك ابن الرجل الخالد كولمبس الذي مات ابوه مسجوناً والاغلال في عنقه جزاء على عمله العظيم ؟! . وهناك ايضاً ضريح للقديس فرديناند .

مأذنة (الخيرالدا) في اشبيلية

اما وقد بلغ بنا المسير الى (القصر) فلا بد من كلمة عنه لان فن اشبيلية يمثل « دور الانتقال » :

نزل العرب البلاد الاسبانية ومضى وقت ليس بالقليل ساد فيه الامن ودانت لهم البلاد وحسنت الحال وكثر الخصب ونمت الثروة فاستأنس العرب بتلك الديار وراقهم جوها ولطف نسيمها وعذب مائها، وخاصة كثرة شبهها بالبلاد العربية ، لذلك اطمأنت نفوسهم ولم يعودوا يشعرون بانهم غرباء عن الديار ، فبنوا القصور الفخمة والمساجد الكبيرة وملأوها بالتحف والنقوش لأنهم الفوا حياة المدن ولم يشعروا ان هناك ما يدعو للخوف والحذر ، او ان هناك عدواً يرقبونه ويخشون بطشه ، فتحضروا وعيشة الحضر تورث الرفاه والحياة الهنيئة .

يدلنا على ذلك ما نشاهده في هندستهم ، ومن خلال خطوطها ونقوشها التي تختلف وجامع قرطبة تماماً . واشد هذه الاثار بروزاً في اشبيلية ، نراها في قصر الخليفة وهو البناء المعروف « بالقصر » Alcazar .

علمنا ان الفن للبلاد كالظل يتبعها في تطورها وبما ان مركز الحضارة الاندلسية في ذاك العصر انتقل من قرطبة الى اشبيلية ، كذلك الفن انتقل معها ليتبعها في انقلابها السياسي والاجتماعي والادبي

احدى غرف « القصر »

لان الفن هو الصورة الصحيحة لروح الامة ، يمثل نهضتها ويمثل سقوطها وكافة احوالها .

اذن لنتلمس هذا التطور الجديد في « القصر » ان القوس في ابنيتها لم يعد جامداً جافاً كالذي نظرناه في جامع قرطبة ، ولا الاعمدة هنا كاعمدة قرطبة ، فالقوس في « القصر » يبدو فيه حركة ، فيه دلال ، فيه حياة جديدة ، فيه الاناقة والبذخ والطمأنينة ، وفيه الكثير من حب الحياة واللهو وشيء من الانوثة ، نشعر ايضاً ان هؤلاء الناس اغنياء مغرمون وشعراء لايفكرون بشيء سوى عزهم وترفهم .

عندما نتأمل في احد اقواس هذا البناء الجميل ونرى التخريم في الجدران والرقة في الاعمدة واللطف في الاحواض والنعومة في النقوش نسمع كأن المهندس حينما اراد وضع تصميمه يقول لنا :

« لماذا هذا الجمود ؟ لماذا هذا الورع والحذر ؟ كفى زهداً . . . تعال واسمع معي صوت هذه القينة العذب وانظر الى جمال محياها وتأمل رشاقة قدها ورقة خصرها ! . . . » ان المهندس في ذلك الوقت من العصر الاندلسي كان يرى ويشعر بما كان يحيط به ، فتأثر به ايضاً ، لذلك وضع لنا هذا النموذج الذي فيه صورة نفسه وصورة عصره معاً .

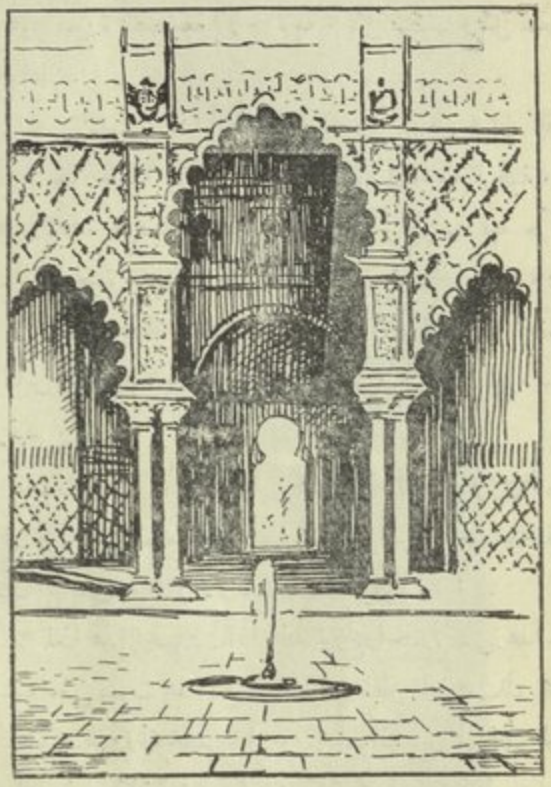

قسم من دار العذارى في « القصر » اشبيلية

ولا بد الداخل اليه اليوم ، من التساؤل عن شدة الظلمة المستحكمة في هذا المكان ، اذ لا يكاد يرى شيئاً الا بالجهد لانعدام وجود الشمس وهي قوية جداً في تلك البلاد بل لان بعض المتسلطين عليه احبوا الظلام فسدوا كل نافذة وحجبوا كل نور من الدخول اليه واوصدوا دونه كثيراً من الابواب التي كانت تزيد عن المئة عداً .

لذلك اظلمت جوانبه ، وخبت انواره ، واقفرت نواحيه ، وهناك في بعض زواياه الحالكة بدت بعض شموع شاحبة كنفس امضها الداء فهي في حشرجة الموت ، هي كنزاع الفن الجميل البائس في قلب هذا المكان ، وقد سالت من تلك الشموع بعض فضلات هي اشبه بعبرات الثكلى وانتشر دخان امتزج مع زفرات الشموع وبدت هناك بعيداً بعض اشباح قاتمة ، فتكون من ذلك منظر مرعب كله حزن وكآبة ، قتل كل ما كان فيه من ألوان وانوار وجمال .

وبعد كل ما ذكرته من التحف والروائع الباهرة ، الا يعجب الانسان ان يرى اكثرها متهدم وان يرى الكلس وضع فوق القيشاني والطين على الفسيفساء ، او ان يرى قسماً منها اقتلع من مكانه وآثار ضربات المعول لا تزال باقية على هذه الدرر الغوالي ؟ افلا يروع

الانسان ان يعلم ان قسماً من الابواب التي هي من خشب الارز المرصعة باجمل النقوش قد بيعت بابخس الاثمان . . وبعضها استعمل للوقود ؟

الا يدهش ايضاً عندما يرى تلك الاعمدة وقد جرفها طوفان من التراب غمر ارض الجامع مقدار متر ونيف ، بل الا يسخط على البشرية اذا ما شاهد تلك الاعمدة وقد اقتلع بعضها فبات اكثرها هاوياً يكاد يسقط ؟ ولماذا ؟ . . كل ذلك لكي يبني الملوك قصوراً وبيعاً لهم ؟! ولو كانت على شيء من الفن والذوق لهان الامر . . . آه ولكن هنيئاً لمن لا يشعرون ! . . .

نحن لا نود سرد الفظائع او المجزرة الفنية القاسية التي يشاهدها الزائر هناك وهي كثيرة ، ولا نحب ان نرثي ، فمرثية الاندلس لم تبق ولم تذر ، ولا نستعرض حوادث تاريخية مؤثرة فهذا مما يعني التاريخ ، انما نحن هنا كما ألمعت آنفاً ، نبحث عن الفن بصورة خاصة ، لكن لا بأس ان نسمع ما قاله في تلك الفظائع « شارلكان » عدو العرب المنصف ففيه كفاية ، قال متأثراً وآسفاً عندما زار هذا الاثر النادر ، وشاهد ما فعلت بهايدي الجهلة والمتعصبين من ابناء قومه قال :

« لقد بنيتم اشياء عادية مبتذلة ملأت كل مكان وهدمتم تحفة بل عجيبة من عجائب الدنيا التي لن يسمح بمثلها الزمان » .

ولا يزال احتجاج بلدية قرطبة الذي قدمته يومئذ دفاعاً عن الجامع محفوظاً لليوم . ولكن الجهل قوة عمياء . . .

خرجت من احدى مداخل المسجد وهو باب التوبة متجهاً شطر نهر الوادي الكبير وهناك قام فوقه جسر روماني عظيم ،

مسجد قرطبة المطل على الجسر الروماني المنصوب فوق نهر الوادي الكبير

وعلى رأسيه ابراج عربية .

ثم ظهرت لي ايضاً على ضفاف النهر بقايا طواحين عربية ،

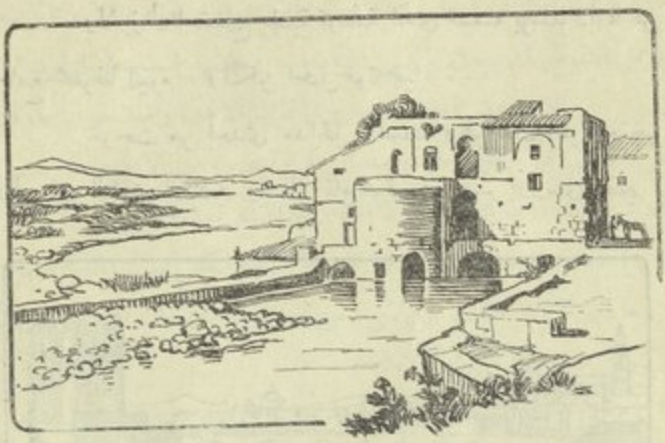

بقايا مطاحن عربية في قرطبة على نهر الوادي الكبير

وهي كثيرة ومشهورة هناك بهذا الاسم .

رجعت للبلدة ماراً بساحتها الصغيرة ولا يوجد غيرها ، وهناك في وسطها اقيم تمثال برونزي تخليداً الى « كابا للبرو كامبيادور » محرر قرطبة ومفخرتها يرى فوق ظهر جواده ينظر بعظمة وتيه .

ثم أجلت الطرف في هذه الساحة اتأمل في الهيئات الغريبة حولي . هنا جماعة وقفوا يتحادثون وصراخهم ملأ الفضاء واشاراتهم

ملاك اندلسي (قرطبة)

المتكررة لم تكن دون حديثهم اناقة ، وقد ارتدوا قبعات مرتفعة القرص جداً وقاسية ذات دائرة واسعة ، فظهر قسمها الاعلى كانه طربوش مكوي ثم تبعها وجه اسمر محروق حليق ، وعيون سوداء حادة ، وانف يدل عن صلابة وانفة ، اما لون « الجاكته » فزيتي وهي ذات قبة مقفولة على الطراز العسكري ، اما « البنطلون » فهو اقرب للسروال منه الى اي شيء اخر ، اذ اتسع اعلاه وضاق اسفله كالسروال الشامي تماماً .

وتجمهر من الناس هناك كتلة ثانية فثالثة الخ . . . وفئة وهي احسن حالا قد جلست في المقهى تلعب او تشرب وبعضهم اتكأ على كرسيين وقد غلب عليه النعاس فنام . . .

ان الفقر والكسل قد غلبا

عامل اندلسي

على حالاتهم ، لكنهم طيبو القلب كثيرو الشهامة فهم مع ذلك مرتاحون . . . وقلما يعرفون السياسة ! . . .

وكأنما جمال الطبيعة ونور الشمس تطرد الهموم ، فتراهم يضحكون بملء نفوسهم . انهم متكلون ايضاً ، ينامون ما يربو على سبع عشرة ساعة يومياً فكأنهم يقضون حياتهم نياماً .

واظن ان هذا هو السر في كثرة المتسولين والعاطلين والمغنين . . . وكلهم مكتف بالقليل من اسباب العيش والحياة البسيطة وشيء من الغناء ، وضرب الكستنائيات والرقص ثم الكثير من الاحلام حيث يبنون منها قصوراً اسبانية .

فتاة اندلسية

كذلك فهم يلهون بالحب مع نساء غيورات اجمل ما فيهن عيونهن السوداء وابتساماتهن الساحرة .

كاهن اندلسي

ولكن يجب ان لا ننسى قط كثرة بائعي اوراق اليانصيب فقد ملأوا الشوارع والزوايا ويظهر لي ان هذا الشعب مقامراً فظيعاً يحب المغامرات .

اما (البيانو الجوالة) بيانو ميكانيك ، فانها لا تزال هناك معززة الجانب موفورة الكرامة . . .

بينما كنت اسير في احد الشوارع واذ صوت غناء عربي يرن في اذني، اصخت بسمعي فاذا هو حاك، وكدت لا اصدق اذني . انه (فونوغراف) عند احد بائعي الشربات ، فاستغربت ما اسمعه ، انني اسمع لحناً عربياً لا شائبة فيه ، يشبه كثيراً اللحن (البغدادي) وبعضه اللحن (الشامي) ولكن الاجمل من كل ذلك هتافهم وصراخهم للمغنى آه آه . . . استحساناً لغنائه كما هي الحال عندنا . وكلما توغلت في جنوبي الاندلس

شرطي

اشتدت النغمة العربية وزادت قوة .

عندما كنت اطوف شوارع قرطبة الضيقة استوقفتني دورها البيضاء ودارها المكشوفة (Basio) باسيو وهي جنينة وفي وسطها بركة لطيفة وازهارها اكثرها الياسمين والفل التي ملأت الجو بلطيف شذاها ومع ذلك فالقيشاني بالوانه الربيعية ظاهر في جدران البيوت على ارتفاع يخيف على المتر كما هو ايضاً في المقاهي والدكاكين وسواها ويدعونه (ازوليخو) .

اما مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر لدين الله تلك المدينة الزاهرة العجيبة ، فقد ذهبت جهودي عبثاً بالبحث عن بقاياها ، لانه لم يبق منها اثر . وقد قرأت اخيراً نبذة عنها بان احد الرهبان بينما كان يحفر في ارض هناك عثر على اثار نفيسة جداً منها تماثيل طيور وأشخاص غاية في الاتقان والفن .

لننظر الى الاعمدة اللطيفة المزدوجة والى تيجانهـا والى حناياها المخرمة والى الجدران المزركشة والى نوافرها التي تطوف رقة وشعراً . الا نرى الفرق العظيم بين هندسة قرطبة وهندسة اشبيلية ؟ الا نرى هذه الاساطين تحمل كثيراً من قوام تلك الحسناء ومن صوتها ومن عذب اغنيتها ؟

لندخل الآن الى « القصر » ونشاهد آثار بني عباد .

على مقربة من الكاتدرائية شيد قصر الزهراء الشهير ويرجع تاريخ بناوه لعصور مختلفة ، انما يوشر فيه في القرن الحادي عشر وقد تم القسم الاكبر منه في القرن الثالث عشر . و « لاجل الذمة » يجب ان نقول ان قسماً من الواجهة ، وان لم يكن رائعاً ولا يحوي فناً ، فهو من بناء (بيارله كرويال) كمـا ان (شارلكان) هزته عاطفة الفن فاضاف الى القصر نقوشاً (يونانية رومانية) شوهت لسوء الحظ جمال القصر لتنافرها مع الفن العربي .

ويجب ان نقول ايضاً ان قصر الزهراء هو الوحيد من الآثار العربية العديدة التي نجت من نقمة ملوك الاسبان بالنسبة لغيرها ، ومع ذلك فهي لم تنج من طلائها بالكلس الذي كان شائعاً « كموضة » في

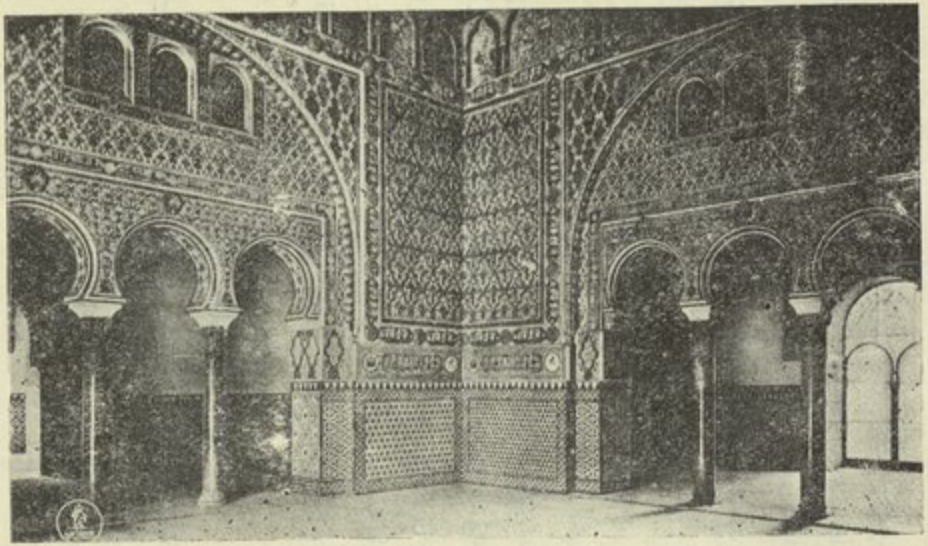

احدى قاعات « القصر »

ذاك العهد . اقول حفظ من الهدم لاحباً في الفن بل لأن الملوك اتخذوه سكناً لهم وهذا بديهي لانه لا يوجد قصر في تلك الديار على شاكلته من الفخامة والابهة جدير بسكن الملوك .

وقصر الزهراء هذا يمثل عهداً متوسطاً من نسق البناء العربي، وروحاً طليقة حرة اكثر من فن قرطبة واقل من فن الحمراء ، ولا شك انه فن يمثل التطور الاخلافي عند العرب في الاندلس ، فبينما نرى فن قرطبة ينم عن رصانة وكثير من الورع والحذر بخطوطه الجامدة واقواسه الضخمة ونقوشه الهادئة ، دليل حياة الجد والعمل ، نرى فن اشبيلية يميل الى الرقة والشعر والترف بما تبديه لنا خطوطه المتعرجة فوق الاقواس والابواب فانها تظهر متحركة ضاحكة يكاد لا يوجد بينها خط مستقيم وجدرانها كلها مخرمة او مكسوة بدقيق النقش .

ان منظر الزهراء الخارجي يكاد يكون بسيطاً ككل بنايات العرب فهو لا يدل على ما يضمه البناء من جمال وبذخ وترف ، للغز في طياته آثار وللحب شذى .

هي دار انيقة فرشت ارضها بالرخام، اما سقفها فقد اتخذ من السماء قبة زرقاء صافية . وحسب عادة العرب وحبهم لمنظر المياه ، فقد سكنت في وسط تلك الدار نوفرة صغيرة تبعث حباتها الماسية .

وقد احاط بالدار رواق فخم ذو قناطر مخرمة وقامت على اعمدة رشيقة مزدوجة من الرخام ثم اكتست الجدران بدقيق النقوش كالتنتنا ، ويتلو هذا الرواق غرف كثيرة لا يمكن لاحد ان يفضل واحدة عن اختها بجمالها وبديع زخرفها وما فيها من عجائب ، وهناك الآيات والحكم تخللت تلك النقوش بتناسب وتناسق عجيب .

وهنا دار تعرف بدار العذارى لانه يقال ان الملوك كانوا يستعرضون فيها كل عام مائة عذراء تقدم هدية لهم . . .

واظن ان في هذه الدار ايضاً لعبت اعتماد زوجة المعتمد بن عباد ومعبودته المدللة مع وصيفاتها بارجلهن العارية بالطين ولكنه طين من الطيوب ، وذلك يوم راقها منظر القرويات يلعبن في الطين ! . . .

وفي حديقة القصر ايضاً كان لها نادرة الطف فقد اشتهت اعتماد العزيزة ، الثلوج في اعالي الجبال يوم زارت قرطبة فتمنت ان يكون لها مثلها في حديقة القصر وفوق هضاب اشبيلية . فخضع الملك العاشق فاذا الحديقة غابة بيضاء ناصعة واذا هضاب اشبيلية متوجة بزهر اللوز . وقد يظن القاري، لغرابتها انه ضرب من الخرافات ولكن العز يأتي بالعجائب . . .

* * *

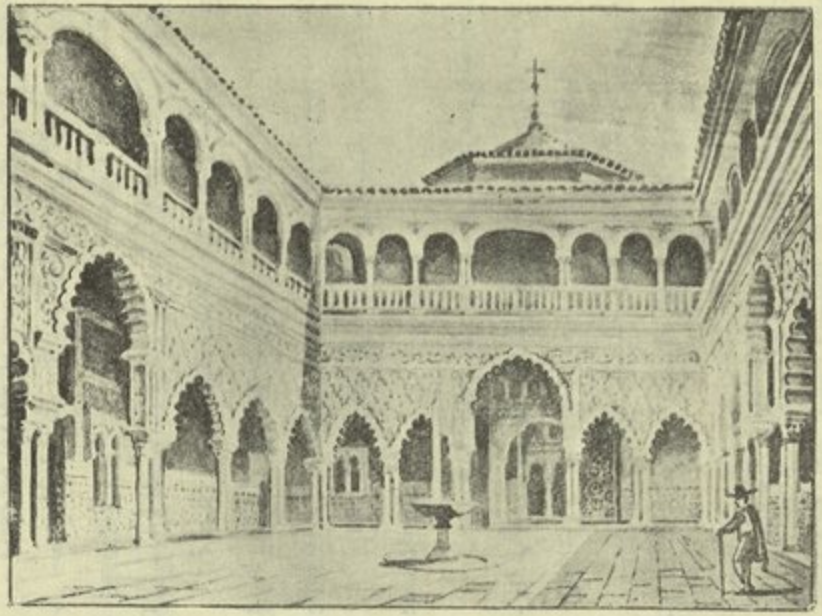

اشبيلية ، دار العذارى في « القصر »

والخلاصة اني بعد ان تملت بخمرة هذا الفن السماوي هبطت على سلم سحري الى الحديقة والاصح الى الفردوس الارضي فلم تكن دون القصر جمالا وغرابة . رياض خضراء متنوعة ، ثم برك ونسقيات باشكال جذابة تلعب بالمياه والمياه تلعب بها وكلاهما يلعبان بالناظرين .

ثم هناك اماكن ظليلة يضمك فيها الزهر وتكاد تغرق بين الخمائل والرياض لولا انه يبدو من بينها ذروة مقصورة هناك حملتها اعمدة رخامية رشيقة وكأنها حسان روميه شمرن عن افخاذ عاجية .

ثم هناك المياه ترقص في وسط احواضها مغردة فتسحر باذشادها السامعين .

ان مثل هذا كثير وكثير جداً فكنت اطوف هذه الجنان واتأمل بما في القصور من روائع وفن وثروة فاحسب نفسي في الجنة بين حور عين واتمنى لو كنت اعيش مع من بنوا ذلك وفي زمانهم .

عند الفجر ودعت اشبيلية وزهراءها وجنحت بروحي نحو شقيقتها غرناطة وعينها الحمراء الفاتنة ، وخاطري لا يزال يرفرف فوق اشبيلية .

وكأن جمال المناظر وزركشة الجبال باشجار الزيتون يخفف بعض اللوعة ، فالاراضي امتدت والسهول تلونت ما بين اخضر فاقع

وقاتم واصفر وبنى تنتهي بهضبات مرتفعة كللهـا شجر الزيتون ، ثم هناك الافق يلامس سماء صافية نيرة .

قضينا ردحاً من الوقت ننعم بمثل هذه المشاهد الخلابة واحياناً تجمعت في وسط هـذه السهول بعض بيوت قروية من بقايا القرون الوسطى وقد خيم الفقر فوق سطوحها الحقيرة المتهدمة .

مضت ساعات واذا بالمناظر بدأت تفقد زهوها ورونقهـا وكثيراً من خضرتها واخذت اليبوسة تمد بساطها ، فلا يُرى الا صخور صماء وشمس محرقة وأرض جرداء ترآى فيها قروي ممتطياً صهوة حماره الصغير ورجلاه متدليتان تكادان تلامسان الارض . وكنت اعجب من صبره فهو يسير في جحيم لا اثر للظل في جنباته .

وكانت المحطات في طريقنا هنا فقيرة جداً كارضها الجافة ، وصخورها التي تصب عليها الشمس حرارتها فتبعث ناراً . ولا أمل للمسافر طبعاً ان يجد في زواياها ما يشربه أو ما يسد به رمقه ، نحن في صحراء مقفرة فكيف يعيشون فيها ؟ مع ذلك لم نفقد الامل فاحياناً كان يأتي للمركبات بعض رجال هيئاتهم مخيفة بعيون تتقد شراراً ، اتوا يعرضون على المسافرين امواساً مختلفة القياس وبينها كبيرة وحادة جداً تكفي لذبح ثور . . . وايضـاً كانت تأتي الى المحطات نساء

واطفال بجرار من الماء وقدح واحد ... فلا يسمع سوى منادين : (آكوا فريسكا) ماء بارد و كازوز سخن فالحمد لله على نعمه ...

ولي وصية مجانية لمن اراد السفر الى تلك المنطقة ان يهيء زوادة من اشبيلية قبل الرحيل والا ...

وكنت دائماً اتطلع من نافذة القطار لاشاهد غرناطة الجميلة بل لارى الحمراء . ولكن المسافة كانت بعيدة تبلغ ما يزيد عن اثنتي عشرة ساعة . الا انني كنت آمل بكافئة طيبة ، هي الامل بمشاهدة جمال الحمراء ، الذي كان ينشطني ويزيدني قوة ويخفف عني وطأة الحر وشدة الظمأ .

وكان ممن ضمتهم القاطرة التي انا فيها نسوة ورجل وكاهن وطال السكوت بنا كما طالت المسافة ، واخيراً سألني المحترم السؤال الذي يلقى عادة بين المسافرين : انه ليوم شديد الحر . او نهار جميل او من اين آت والى اين ذاهب الخ ؟ .. وكان ان سألني وجهتي فاخبرته ، طبعاً عرف من لهجتي بانني غريب عن البلاد فتقرب بالحديث وتلاطف ، لان الاسبان من طبعهم حب الغرباء واكرام النزلاء وملاطفتهم . وقد بلغ بنا الحديث الى الآثار العربية ، فاخذ ينشد جمالها ويطنب بعظمتها ، وكنت لا ازال اتألم مما شاهدته في جامع

قرطبة واشبيلية من الفظائع الفنية لذلك ترك بسوآله مجالا لاخفف ما بي من ألم وكان حديث حار انتهى بان اقتنع مخاطبي بان حالة الاثار على ما هي عليه لا تتفق ومصلحة البلاد المادية والمعنوية .

وكان القطار قد بلغ عند الساعة الثانية عشرة محطة « بوابديل » تحريف لابي عبد الله ، فودعني المحترم ورفيقاه ووجهتهم (مالقه) لان هذه المحطة مفرق خطي غرناطة — مالقه .

وشعرت بالجوع لانني لم استعد استعداداً كافياً قبل تركي اشبيلية . فدخلت مطعماً بسيطاً كالذي يوجد عادة في تلك المحطات الصغيرة حيث يدخل المسافر مهرولا ويأكل حشواً ويدفع هارباً ليلحق بالقطار لاهثاً يلعن بروغرام سكة الحديد الفظيع .

تابع القطار سيره نحو غرناطة وهنا بدأت تتغير علينا المناظر وبدت لها نضرة ورواء ، وكان الاخضرار ينشر بساطه الجميل في السهل والجبل وانسابت المياه في الجداول فاستقامت على ضفافها اشجار الحور والصفصاف ، وكانت تبدو علينا الفينة بعد الفينة بعض بيوت قروية اقل بؤساً من السابقة ، واحياناً نشاهد معامل للسكر .

ان المناظر البديعة التي كانت تمر امامنا لم تمنعني من ان أجيل

الطرف المرة بعد المرة في وجوه المسافرين وهيآتهم المختلفة وكان بينهم اندلسية حسناء تسلحت بناظرتين عربيتين الله منهما !!! . . فيها سقم ويورثان سقما ، تنظر الى من حولها غير مبالية كأنها اميرة فرت من احدى مقاصير الحمراء ، او قصر الزهراء ، تنظر الى المسافرين الذين كانوا يحدقون بها كأنما يقرأون على وجهها بعض اساطير غرام . وكان على شفتيها ابتسامة ملعونة كأنها تقول :

القوا الي بنظراتكم الغاوية واودعوها ما شئتم من عطف وغرام ولكن لا ترقبوا مني رحمة ولا شفقة ! . . .

اما القطار فكان يسير ببطء لاهثاً كمن نزلت به الشيخوخة وهو بحاجة الى الراحة او الاحالة للتقاعد .

سار القطار ساعات بين جنات ، اقول جنات لما كنت اشاهده من خصب وغياض وثروة ينطبق تماماً على هذا الاسم .

وان يكن اكثر هذه الاراضي مهملا وطريقة حرثه عقيمة كنت اقول في ضميري وانا انظر الى ذلك : لو اتيح للفلاح اللبناني ان يعمل في هذه الاراضي بالهمة والجد اللذين يبذلها في صخوره لجعلها اغنى ارض في العالم وتحلى بالذهب وتسربل بالحرير .

ان طارقاً لم يكن مبالغاً في وصفه فيما كتبه للخليفة في دمشق

عند الفتح يصف له خصب تلك البلاد واليك ما قاله :

« الاندلس هي سوريا بجالها وسمائها وارضها ، واليمن بلطف جوها ، وهي الهند بازهارها وطيوبها ، ومصر بخصبها وهي الصين في كثرة معادنها وحجارتها الكريمة » .

وكانت نظراتي الشاردة تذهب من نافذة القطار باحثة في تلك الارجاء علها تفوز بنظرة الى غرناطة وتنعم بجالها الذي طالما حلمت به وعللت النفس برؤيته .

وعند مخرج سلسلة جبال كستها الطبيعة وشاحاً سندسياً دخلنا سهول (فيكا) الخصبة ونعمنا بمناظرها الجميلة وكان وصولنا عند غروب ذهبي بديع .

لقد كنت اعلل النفس بمكافأة حسنة بعد سفر ساعات محرقة ومهلكة في قطار يشابه بسرعته السلحفاة .

وما هي الا دقائق معدودات حتى اطلت علينا هضاب غرناطة وانتثرت فوقها البيوت البيضاء وقد ردها نور الشفق وردية باهرة وعلى مرتفع مستقل بين غياض كثيفة ظهرت ابراج مربعة الشكل ثم سور عظيم عقيقي اللون هو سور قلعة الحمراء وابراجها الشهيرة ، حيث ستقرت خلف جدرانها روائع الفن العربي . والذي زاد المنظر روعة

جبال « سيارا نفادا » اي جبال الثلج ، القائمة وراءها وقد تعممت ذراها بالثلوج الدائمة .

ان الحمراء اروع تحفة فنية بنيت في اجمل موقع فجمعت الجمال والكمال ولذلك فهي فريدة نادرة ، تركزت على قمة الهضبة فاشرفت على غرناطة وسهولها الشاسعة الخصبة وهي بموقعها هذا تمثل منظراً وحيداً من نوعه فابراجها البارزة تحيط باطراف الهضبة كافة ، فتظهر للناظر كانها تاج ذهبي على مفرق حسناء تنتهي قمته بزرقة السماء ويغوص اسفله بخضرة خصبة بالغة .

عجبت جداً حينما وقف القطار ووقع نظري على اسم غرناطة الجميل وقد خط على محطة بسيطة .

وراحت السيارة تشق طرقات بسيطة بين ابنية ليس لها نسق خاص وسار في وسطها قطار كهربائي رقاص ، اما البسة الناس فهي ليست محلاة كما هو شأنها في غيرها من المدن الاندلسية .

نظرت ذلك فقلت : اهذه هي غرناطة ؟ اهذا هو البلدالطائر الصيت ؟ البلد المجيد الذي كان من اكبر عواصم اوروبا والذي كان محجة الملوك وكبار الرجال ، المدينة التي كانت خمسة اجيال خلت تضم نيفاً ونصف مليون من السكان وكانت مركزاً هاماً للعلوم

والفنون ؟ ما افظعها خيبة ! . . .

ورغم وصول القطار متأخراً لم يمنعني ذلك من الذهاب تواً لزيارة قلعة الحمراء غير شاعر بتعب السفر ، سرت قاصداً نحو التي يحلم بها المسافر طيلة اسفاره ، وتخفق لها قلوب الادباء والفنانين ، ويتغنى بجمالها الشعراء وتلمع لذكر اسمها عيون الغانيات . هيا نحو «اكربول» العرب المجيد . وكنت في اثناء مسيري تطل عليّ ابراجها من خلال البيوت وتحجبها عني الاشجار الباسقة حول اسوارها .

الحمراء هي : سور وقلعة وقصر ، لذلك يبدو منظرها الخارجي كأنه قلعة شأن اكثر القصور الاندلسية التي لا يدل خارجها على ما تضمنه من جمال ودقة وابداع .

ثم اخذت اصعد في طريق تعرف بطريق (قومالس) تنتهي بباب ضخم خشن الهندسة ثقيلها ، نقش في اعلاه ثلاث رمانات متفتقة رمز مدينة غرناطة واسمها[1] ، وهو من بناء شارلكان . وهناك بركة ضخمة افظع من الباب كتب عليها مقدمة وتمجيد اطول من البركة نفسها كل ذلك في سبيل حوض ماء لايعرف للفن معنى !! . . .

وما كدت اجتاز هذا الباب حتى ارتفعت امامي غابة ذات اشجار عظيمة مشتبكة يخترقها ممر ضيق متعرج يتلاشى في اعماقها ،

(١) اسم البلدة في الاسبانية Granada ومعناه رمانة .

وهناك ظل ظليل ونسيم رقيق ينشر في الجو رائحة زكية وسكون مهيب تقطعه احياناً اغاريد الطيور وخرير المياه المنسابة على طرفي الطريق الصغيرة .

وكان يبدو لي في جوف هذا الغاب ومن خلال اشجاره القاتمة انوار سحرية فجددت في السير نحو هذا النور المنبثق ماراً ببقايا اسوار وانتهيت عند برج مربع الشكل دموي اللون وله باب عظيم وجميل رغم ما في خطوطه من بساطة ، انما كل السر في الفن العربي هو فهمهم تأثيرات الظل والنور وما ينشأ عنها من روعة ورواء .

وهذا الباب يبلغ ارتفاعه ما يزيد عن الستة امتار ذو قوس بشكل (نعل حصان) وهذا المدخل يعرف (بباب العدل) وهو احد مداخل قلعة الحمراء . وقد نقشت في اعلاه يد منبسطة الاصابع ، رمزاً لقواعد الاسلام الخمس ثم مفتاح كبير للدلالة على ان هذه البوابة هي مفتاح القلعة .

ثم كتب على احد طرفيها كلمة الشهادة وعلى الثاني كلمة الحوقلة وهناك تاريخ بنائها في عهد ابي الحسن يوسف من بني الاحمر لخمسة قرون خلت ، ثم في اعلاها تمثال العذراء فأعجبتني هذه المصالحة اللطيفة والاتفاق الرمزي .

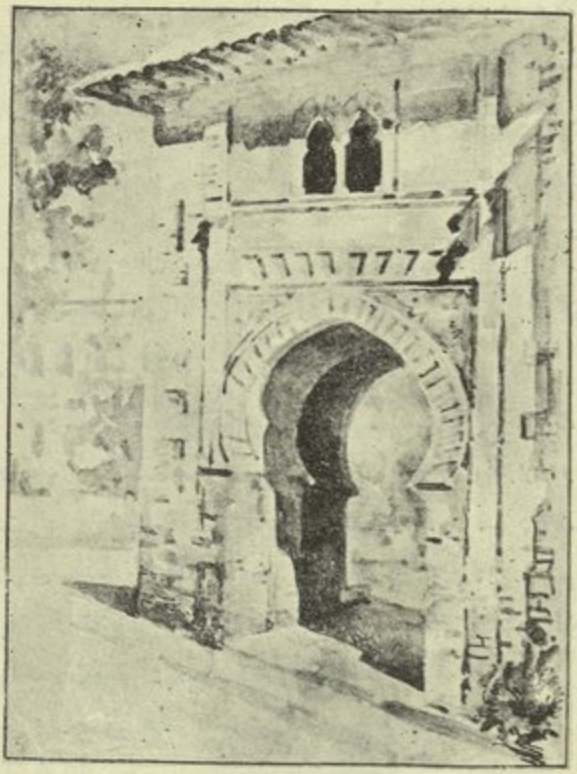

باب الخمر كما يدعوه الاسبان — (الحمراء)

ثم اتبعت طريقاً ضيقاً انتهى بي في ساحة مغروسة بالاشجار هي « ساحة الجب » لان فيها للآن بئراً كبيرة ذات مياه عذبة للغاية. ثم هناك ايضاً بقية اثار منها باب يدعوه الاسبان باب الخمر الجميل وهو من بناء بني نصر .

* * *

وقفت هناك متردداً وقد ملكتني الحيرة ، أأذهب نحو الحمراء ؟ فارتاع واجفاً ، ام اذهب الى « الجنراليف »؟ أم الى القصبة؟ ام الى حديقة المعشوقة ؟

وكانت الشمس قد جنحت للمغيب فحرصاً على الوقت وكان جد ثمين عندي ، التفت يسرة حيث حديقة وابراج (بولفيري) و(فالا) فهروات اليها ماراً بحديقة وباب صغير ضيق . صعدت عدة درجات حتى انتهيت الى سطح برج (فالا) وهو برج عظيم يزيد ارتفاعه عن ستة وعشرين متراً قائم على شفا هاوية مريعة من الهضبة ، ذو بناء عجيب ، ضخم الجدران وهناك اقبية كبيرة تسع جيشاً بعدته .

ان منظر هذه القلعة يدل بوضوح على انها لا تؤخذ الا بحصار سنين او بخيانة . هو بناء جبار اقيم ليحمي هذه الدرر الثمينة ويدافع عن فن الحمراء الدقيق .

من على سطح برج (فالا) تبدو مدينة غرناطة وسهلها الافيح بمنظر رائع مهيب ، ومن الجهة الاخري جبال (السيارا) الذاهبة سمواً في السماء وكانت ساعة غروب عجيب بالوانه ، منظر يحمل شيئاً من فاجعة محزنة هي صورة لنفسي في تلك الساعة وانا ماثل بين هذه المعالم الناطقة .

وبينا انا غارق في تأملاتي لفت نظري من على هذا السطح ناقوس ضخم ، ليس هو تحفة فنية ، بل فهمت من اللوحة الموضوعة باسفله انه ذكرى لسقوط غرناطة من يد العرب في الاثنين من كانون ثاني عام الف واربعمئة واثنين وتسعين ، وهذا الجرس يدق اربع وعشرين ساعة متوالية في كل عام من مثل هذا التاريخ ، لذلك فهذا الجرس لم يرق لي ولم ينل محبة مني لانه ذكرى سقوط مدنية باهرة وقتل فن رائع .

الناقوس التذكاري في اعلى برج « فالا »

هناك في وسط هذه السهول المنبسطة تحتي ظهرت لي الهضبة المعروفة باسم « سوبيرو دلمورو » اي زفرة المغربي . هناك ترآى لي انها تسير قافلة عربية منهزمة . هناك وقف الامير الفتى ابو عبد الله وقفته المفجعة ملتفتاً نحو « فردوسه الضائع » نحو غرناطة والحمراء التي كانت تتلاشى شيئاً فشيئاً وراء الافق واذا هي بعد قليل كحلم من الاحلام . عندئذ بكى ابو عبد الله بكاء الثكلى . في هذا المكان قالت له والدته كلمتها المشهورة : « ابك اليوم بكاء النساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال » .

انها لساعة قاسية وهائلة جداً حينما كان ذاك الامير التعيس ينسحب مغلوباً على امره .

لاريب انها كانت كذلك ساعة سرور عظيم حينما نظر فرديناند وايزابلا راية (الكاستيل) تخفق فوق اعلى برج في الحمراء عندئذ ترجلا عن جواديهما وسجدا شكراً لله على فضله . ثم ابتسما لحلاوة الظفر بعد حصار دام عشر سنين .

ياللفاجعة !! اسطورة هذا الامير الفتى كما كان يلقبه الاسبان، وكم فيها من عبر !...

تزوج السلطان ابو الحسن صاحب غرناطة من عائشة ورزق

منها ابا عبد الله وكان هذا (ابو الحسن) شرهاً جداً، فاتخذ له محظية هي ثريا الاسبانية الحسناء .

ثارت الغيرة في صدر عائشة وخافت على حق ولدها في العرش فهربت الى قادس (Cadix) واعلنته ملكاً ، فاثارت بعملها هذا حرباً اهلية بين قبيلتين من اقوى قبائل العرب وهما الزغريون وآل سراج . كانتا تتقاتلان في طرقات غرناطة ، بينما كان العرب في حرب اخرى مع الاسبان .

نجح الولد في خلع ابيه عن العرش ولكن هذا الملك الطفل الذي ساعده اخواله ومنهم خاله (الزغل) الذي اغراه « الكرسي» وكم اغرى مثله ... لذلك اصبح في غرناطة ملكان يمزقانها بالانقسامات والثورات الاهلية . وبالطبع عرف الاسبان الساهرون الساعة الملائمة لاخراج العرب فاخذوا بالاستيلاء على الاندلس بلداً بعد اخر حتى تم لهم احتلالها بلا تعب .

في الساعة الاخيرة دخلت الحكمة رأس (الزغل) فتنازل عن العرش وذهب الى حيث ... تاركاً الحمراء لابي عبد الله وحده ولكن بعد خراب البصرة .. لان هذا الفتى لم يهنأ بعرشه المتداعي، ان فرديناند وايزبلا قد سداعليه الطرق كي لا تصله نجدات وموئن من

افريقيا . ثم جلسا هناك في سهول (Vega) ينظران اليه يموت جوعاً منتظرين الدقيقة العظيمة التي يأتي اليهما فيها الامير بنفسه ليقدم مفاتيح حمرائه ، وذلك اقصى امنيتهم ، انهما لم يفكرا قط بالهجوم على هذه القلعه ، ولا ان يهرقا دماً لانهما كانا يعلمان يقيناً انه لمن الحمق الاستيلاء بالقوة على مثل هذه الحصون الجبارة .

واخيراً نفدت المؤن عند ابي عبد الله ومزق الجوع من صفوفه فاضطر للتسليم بروح لا تعرف البطولة والشمم ، وقد تركوه يرحل الى مراكش قانعاً بسلامة روحه . . .

والغريب انه لم ينس ان يتأبط معه الى فاس بعض مفاتيح قصره الحمراء آملا العودة اليها يوماً . . . ولكن هذه المفاتيح رقدت معه هناك ! . . . وهي لا تزال نائمه . . .

تلك مأساة من تاريخ آخر ملوك الاندلس لا تخلو من عبرة .

تلك المدنية العظيمة التي استمرت ثمانية قرون وقد بلغت الذروة ، افل نجمها الساطع وهي لا تزال تهوي في سقوطها . هي كهذه الشمس التي كانت لساعات خلت في كبد السماء تضيء بنورها العالم باسره ، ها هي امامي الآن تغيب وراء الافق تاركة لهيباً دامياً وظلاماً شاملا .

نزلت من اعلى البرج ودخلت فندقي وكانت علي ليلة عبوسة، واخيراً ابتسم الفجر فلاح من خلال ثناياه نور النهار، فهرولت نحو « الاكربول العربي » وبي من السرور مالا يوصف. ولم احب ان ادخله من طريق العربة بل من قلب الغاب الكثيف ماراً بباب العدل فساحة الجب فحديقة المعشوقة، ثم التفت فرأيت قصراً على طراز روماني متأخر (Baroque) قبيح الهندسة وهو مهجور. فتعجبت ثم قلت في نفسي : ترى من هو صاحب هذه الفكرة الحمقاء الذي شوه جنان الخلفاء باقامة هذا البناء البشع ؟

هو شارلكان !!! . . .

لقد تأثر في قرطبة وغضب من بعضهم . . . لتخريبهم الجامع الشهير، ولكنه هنا اصيب، لا ادري بماذا . . . فدفعته الكبرياء الى ارتكاب مثل هذه المجزرة الفنية .

ان فرديناند اعجب بهذه الآثار واحترمها فحافظ عليها وحماها، ولكن خلفه لاادري اي شيء اصابه حتى هدم القسم الجنوبي من الحمراء ليبني له قصراً يباهي به الحمراء. ولم يكفه ذلك بل قلد النسق الروماني ومع ذلك لم يفلح، فقام اتباعه من بعده بنفس التجربة فباؤا بالفشل التام، اذ علموا ان بناء كالحمراء لن يستطيع احد أن

يأتي بمثله لانه نتاج مدنية عالية وعقلية راقية ناضجة ، فتركوا هـذه الفكرة جانباً ، وها هو قصر شارلكان اليوم في خرابـه موضوع سخريـة الكتاب والمؤرخين وسخطهم ، اولئك الذين لم ينسوا من نقمتهم على جريمته الماثلة في الحمراء ان يؤدوه نصيبه من السخرية والتهكم في مؤلفاتهم .

يستطيع الزائر ان يرى الفرق بين الفنين فيدرك حالا الفرق بين المدنيتين . . . .

خير لنا ان نتخلص من هذا الشبح المزعج ، لنقصد الى الحمراء . اين هي ؟

اقتربت من رجل مستفسراً فاشار الى باب حقير هناك وبعض ابنية عادية ، فظننتني تائهاً واسفت للاتعاب والمشاق التي تحملتهـا لارى مثل هذه الابنية ! . . .

وكأن حالتي هذه لم تخف على الرجل فكان ينظر الي محاولا اخفاء ابتسامة معنوية . وبعد قليل تشجعت ودخلت باباً صغيراً ماراً بممشى مظلم وغرف متهدمة بينما كنت اتساءل : اهذه هي الحمراء الشهيرة ؟ اهذه هي العجيبة التي يتحدث عنهـا الركبان والتي باتت مضرب المثل ؟ اهذه هي قصور بني نصر يوسف ومحمد وأبي عبدالله؟

لاشك ان الزائر يشعر لاول وهلة بخيبة مريعة عندما يرى هذه الغرف البسيطة . اما انا وكنت احمل رسالة الى محافظ الحمراء من وزارة الفنون فانه استقبلني بلطف اندلسي مقدماً الي كل مساعدة، ولما انصرفت من عنده ودعته شاكراً .

هنا دار لا تزال فيها بقية من نقوش عربية هي دار الشورى (Mexuara) التي توهم شارلكان انه اصلحها فشوهها بما وضعه فيها من نقوش (اوروبيه) بعد ان دس شارته الملكية في كل زاوية تخليداً لذكره . ثم جاء مـن بعده في القرن السابع عشر قوم اتقياء فحولوها الى كنيسة ، ويظهر ان البرد اشتد في تلك الديار ، فاشتروا مدفئة طليانية والصقوها هناك ! . . .

ونهاية العجب انه حشرت في هذا المعبد صور دينية ودنيوية معاً مثل : ليدا وساتير وجوبيتر ؟! . . هي فوضى بل « سلَطة روسية » ولكن بلا طعم ولا ذوق . . .

هذه الفظائع يزول اثرها عندما يدخل المرء بغتة الى ساحة الريحان المعروفة (Myrtes) او ساحة البركة ، حيث يضيء سنا النبوغ العربي وجلاله ، نعم في دار الريحان تبدو العبقرية الشرقية باهرة . انني اشعر بسحر غريب يتملكني وتأثير بالغ لا يمكن لاحد ان يفسره

او يستطيع الفرار منه مهما تحجر قلبه وجف شعوره .

(ساحة الريحان هذه اوسع ساحات القصر وهي تمثل في آن واحد داراً وممشى من رخام وحديقة امتدت في وسطها بركة كبيرة مستطيلة الشكل محاطة باطار من نبات الريحان ومركزها في الدار من الجنوب للشمال . ثم ينعكس على سطح مرآتها الصافية صورة الحمراء الجميلة وما هناك من اقواس واعمدة ونقوش وكتابات وازهار وفاكهة وريحان ثم سماء زرقاء نقية . انني لم احب ان اشغل نفسي في البدء بالنقوش والتفاصيل الدقيقة ، انني اتكلم عن المجموع ، عن التناسق الموزون ، والتجانس بين الخطوط والمسافات، تلك الموسيقى الهندسيه الساحرة التي تطوف في هذه البركة المرمرية فتفتن الناظرين .

تناسب بين الطول والعرض ثم الارتفاع ومثله في الممر الذي يحيط بتلك المرآة المائية التي تلعب فيها الاسماك .

اما هذه الساحة فقد احاط بها رواق ذو حنايا رحبة نهضت فوق اعمدة من المرمر هي كالشموع او كأنها شلال من الماء الصافي انسكب ظله على صفحة المياه الساكنة .

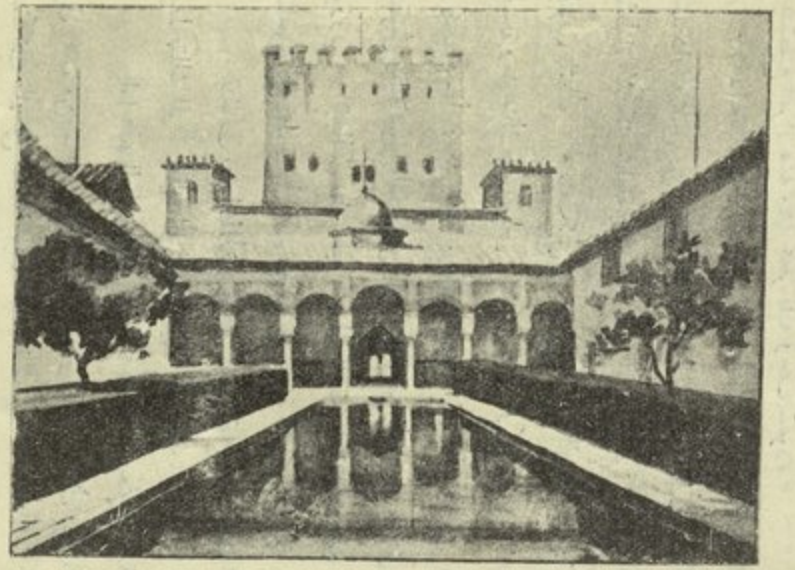

الحمراء – دار الريحان وبركتها

ما هذا الاطار من الريحان الفاخر؟ ما هذه الابواب وهي من من خشب الارز تكاد تلمع من ورائها عيون ملكة عربية بين وصيفاتها ؟ وذلك القيشاني البديع والنقوش المدهشة ؟ يا لها من نغمة موسيقية عذبة ، ولحن ساحر تردده هذه الالوان ! بل يالها من صورة رائعة لجمال النفس العربية .

ان هذه الساحة لهي آية من آيات الفن بما فيها من بساطة وتناسق عجيبين . هي لا تحوي سوى اربعة جدران بسيطة وبركة وبعض قناطر وتظهر هذه الدار نقية ساكنة لانها من الرخام الناصع ، هي بسيطة جداً ولكنها تبدو عجيبة فاتنة . وهذا هو سر الفن الراقي كما عرفه فنانو الاغريق القدماء : « نحن قوم نحب الجمال بشكله الطبيعي البسيط » .

لنقصد الآن الى الجهة الشمالية من الساحة ، نحو تلك الاقواس (التنتنائية) والاعمدة الرشيقة حيث ينهض وراءها برج عظيم مربع الشكل ذو باب واسع يظهر من وراء نوافذه المزركشة لون السماء وذرى جبال زرقاء بعيدة .

هي قاعة السفراء المعروفة Sala dell' Ambaciadores حيث تقرر فيها لكريستوف كولمبس المساعدة للقيام برحلته التاريخية .

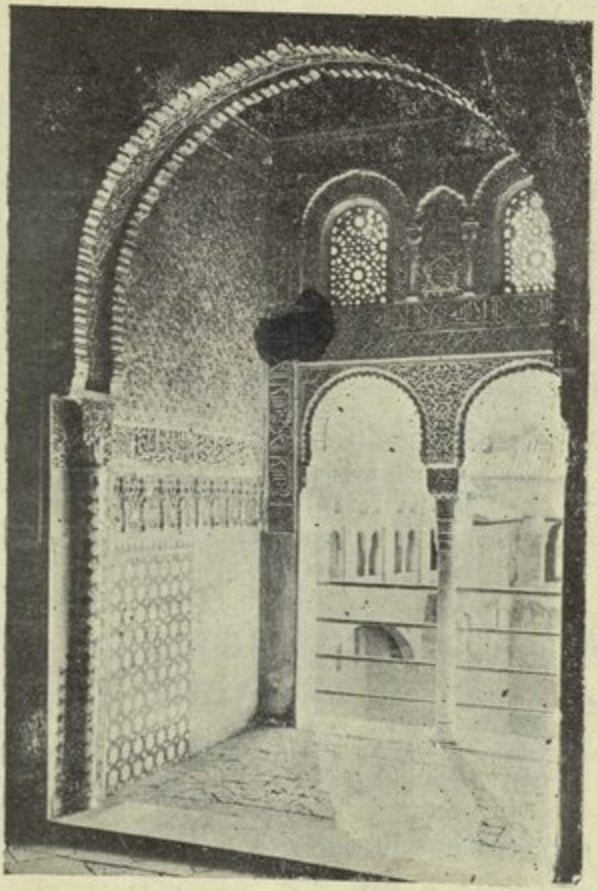

احدى نوافذ غرفة السفراء

ماذا اقول عنها ؟ أأتكلم عن جدرانها التي اكتست بالنقوش والزركشة الدقيقة العجيبة من فسيفساء ونجوم وازهار وما هنالك من فن عجيب؟ أأتحدث عن الخطوط من كوفية وغير كوفية بشكلها الزخرفي بما فيها من حكم وآيات وشعر رقيق تأخذ بالالباب ؟ ام اصف السقف من خشب الارز ذا الخطوط والرسوم الهندسية الموشح بالعاج والمحلى بعضه بالابنوس ؟ حقاً انني لا استطيع الكلام عنها بل اترك القلم من يدي بعد ان تركت الريشة وكلاهما سقطا عاجزين .

ظللت مدة مسحوراً بما ارى وقد نسيت الوقت ، نسيت غرناطة والعالم ، بل نسيت كل شيء ، انني اسبح في بحر متسع من العجائب الاندلسية .

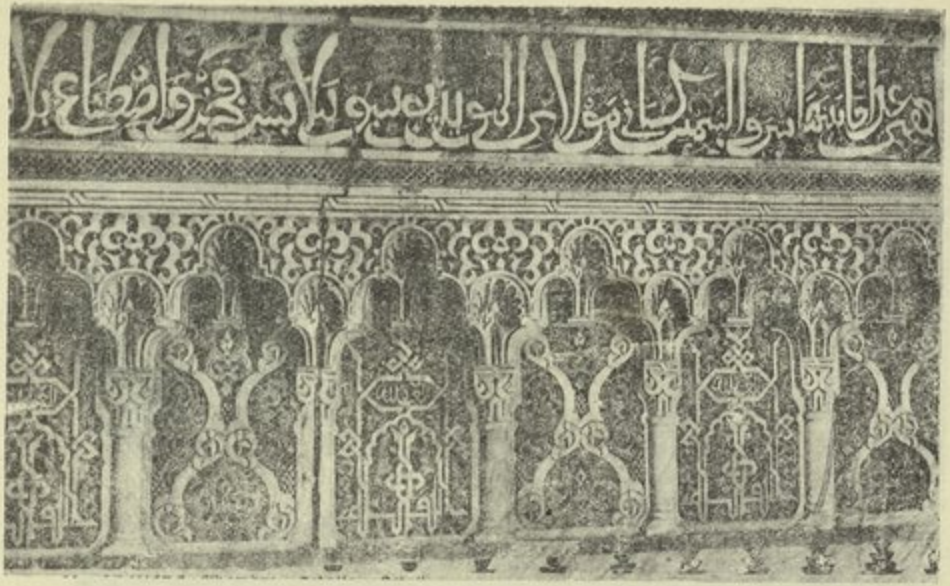

بعض نقوش جدران الحمراء

وهممت بالخروج ملتفتاً نحو الجهة المقابلة فاذا بي ارى امامي صورة فاتنة جعلتني اقف مدهوشاً في مكاني واليك وصفها :

بين عمودين من المرمر علتها قنطرة دقيقة الصنع بدت لي تحتها حسناء اندلسية عربية اللون جميلة الوجه على رأسها وشاح ابيض ظهر من جوانبه قليل من شعرها الاسود الشديد اللمعان وهي تنظر بعيون فاترة ولكنها فاتكة وقد علت وجهها شيء من كآبة وشحوب زادها فتنة وجمالاً .

انه لمن الصعب ان اصف التأثير الشديد الذي يحدثه منظر هذا الوجه الجميل في جانب هذا الفن الجميل ! . ان حسناء هذه بدت كأنها دمية يونانية اخرجها ازميل «بركستيل»[1] او ريشة «ده فنسي» فاتمت المنظر . فالقوس المنحني فوقها والعمودان على طرفيه كانت لها اطاراً ، وما كان حولها من مياه وخضار ونقوش كونت من المنظر صورة رائعة فاتنة .

لاريب ان المهندس تخيل هذه الصبية عندما وضع تصميم

---

(١) بركستيل : هو من اشهر مثالي اليونان القدماء ، و ده فنسي : هو المصور الايطالي صاحب صورة « جوكندا » الشهيرة .

هذه الدار ، لذلك تراءت لي في تلك البرهة كأنها سلطانة عربية او محظية تنتظر قدوم سيدها العربي . كنت ازاء هذا المشهد كمن هو في حلم ، ينظر الى ملاك كريم ، وما لبثت فتاتنا ان ابتسمت ثم احتجبت بين العمد والالوان والنقوش احتجاب الزهرة الجميلة في اكمامها .

غربت الشمس فدوى الجرس ايذاناً بالخروج من هذا النعيم فغادرته آسفاً اسف آدم عند فراق جنته .

قصدت الفندق وانا لا اعي على شيء من تأثير ما شاهدت ، وحينما دخلت الى النزل طلبت من صاحبه ان يهيء لي كل صباح طعام الغداء لانني قررت الاقامة في الحمراء طول نهاري . فابتسم قائلاً لست انت باول من طلب ذلك . . .

وما ان رأيت سهام الشمس مرسلة حتى اخذت طريقي الى محجتي الحمراء ، وهناك سرت متابعاً نقوش دار الريحان نحو ساحة الاسود الى ان انتهيت امام باب صغير ولكنه جميل .

هناك وقفت متردداً خائفاً لااجسر على الدخول رهبة وخشية من روعة « ساحة الاسود » ولا عجب فان للجمال والفن روعة ومهابة ، وكنت كلما دنوت منها ازدادت نبضات قلبي وبت في حيرة .

واخيراً راحت نظراتي الى الداخل حيث وقعت على انوار

ساحرة جذبتني اليها بقوة عجيبة ، فسرت اليها طائعاً لا أملك من امر نفسي شيئاً .

ومنذ تلك البرهة بت اعتقد بالسحر وفعله ، وان اعترفت بعجزي عن وصف تأثري العميق في تلك البرهة النادرة فلا اكون قد قلت جديداً ، فقد أقر بـه قبلي من كبار الكتاب ممن عرفوا بالمقدرة والتفوق .

ماذا شعرت في تلك البرهة ؟ لا ادري انما جل ما كان دمعة حارة جادت بها عيني على ضريح الفن والجمال ساعة لا ولن انساها ما حييت ، هي كل الحياة ، في تلك الدقيقة فهمت الحياة ونعمت بالجمال وحظيت بالفن السامي وشممت من طي جدران هذا المكان وزواياه شذا الحب والعز والترف والعظمة البالغة . الحب بغرائبه واسراره ، والهيام بكآبته وسكونه ، والغرام بدلاله ، والعز بروعته وجبروته ، والترف بمبالغاته واسرافه ، والعظمة بسلطانها وثورتها التي ترتفع محلقة الى ان تبلغ السماء تسبيحاً بنعم الله فيتردد صداها في جوانب الحمراء « العزة لله » « ولا غالب الا الله !! . . . »

هناك امتزاج روحي بين جمال الحمراء ونفوس المغرمين

والشعراء الذين كل رغباتهم احلام براقة . ان العبقرية العربية ملكت الخيال ومثلته في الحمراء حقيقة خيالية ، انها حلم ، انها نور وآمال ، لهذا تجد الحمراء مع ما هي عليه الآن من خراب ، لا تزال اجمل قصر في العالم ، لان فيها سحراً ونوراً ، وفي جوها تنتشر رائحة الحب والحياة والهناء ، غاية الحياة واقصى الفنى والترف والعظمة ، ولذلك قد هوت عن عالي مجدها وسامي ازدهارها وما بعد الذروة الا السقوط . . .

الا رحم الله الشاعر الحساس فوزي معلوف حيث يقول فيها :

تالله قصر الحمراء لا برحت ... ترويك منا المدامع الحمرُ
انت على الشرق عبرة بقيت ... في مقلة الغرب كلها عبر
كل فخار لديك مدخر ... صنع الاولى خلدوك واندثروا
ابوابك الزهر من فنونهم ... خطت عليها الايات والسور
حروف مجد في رونقك اعتنقت ... كأنهن الرماح تشتجر
من فنهم رفهوك في بردٍ ... بها تتيه السقوف والجدر
عابوك لما عدت محجمة ... فيك جياد الاعارب ضمرُ
كل الحضارات في بداءتها ... بدوٌ وفي اوج عزها حضر
تورق بين الرماح غرستها ... وفي ظلال السيوف تزدهر

***

ذاك مجد حضنته زمناً واغتاله فوق حضنك القدر
فكنت غرناطة على فمه آخر ما قال وهو يحتضر

* * *

وقفت ذاهلاً صامتاً ، وهنا لا حاجة بي الى الكلام ، ومن يجسر عليه ؟ انا في ساحة الاسود ، ساحة الجمال السامي ، ساحة النور والسحر ، كعبة الفن حيث تصعد بالمرء الى الملأ الاعلى شاكراً لله ما اودعه في نفوس هولاء القوم من نبوغ وعبقرية بالغة .

برهتان في حياتي لم ار مثلهما ، يوم قرطبة ويوم غرناطة ، هما خلاصة الحياة .

واخيراً أفقت من ذهولي فماذا رأيت امامي ؟ غابة من الاعمدة المرمرية الرشيقة ، فوقها حنايا تدلت منها نقوش وتخاريم كأنها العناقيد ، وجدران اكتست بدقيق النقش وجميل الزخرفة ، اناقة لا توصف ، رقة لا تدرك ، وفن بالغ اشياء اشبه بالخرافات والاساطير منها للحقيقة . ولكنها ماثلة امامي . . .

انني لا اعرف ما اسميها ولا اعرف ما فيها من جمال ومن تناسق ومن نور وترصيع ومن الوان ومن ظلال متموجة ، اقسام يتلألأ على صفحاتها النور فاذا وقع عليها البصر رد حاسراً خاشعاً .

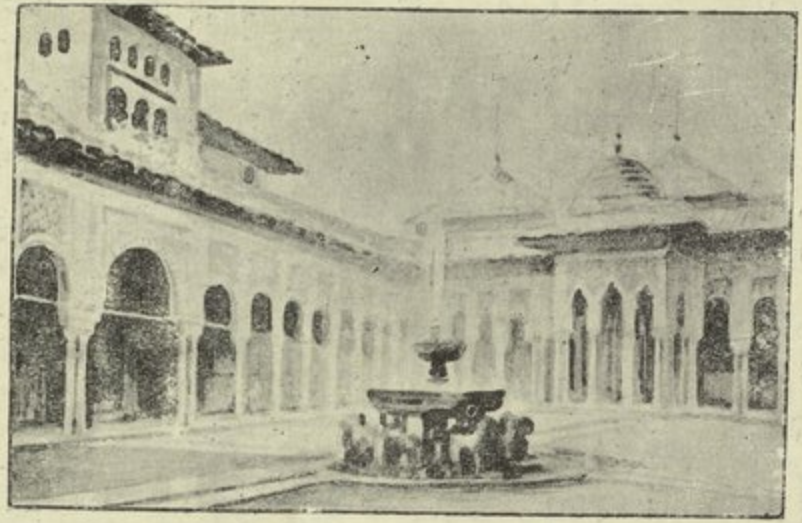

قسم من ساحة الاسود

انني امام منظر مدهش رائع تتحول فيه الاشياء الى اطياف، الى احلام تتطوف بك في عالم النور والجمال .

واغرب من ذلك ان كل هذه المعجزات قد انحصرت في ساحة لا يزيد طولها عن خمسة عشر متراً في عرض عشرة امتار . ساحة مكشوفة تبدو فوقها زرقة السماء والشمس تسكب سائلها الذهبي ، والقمر يرسله لجين على ارضها ، او تشع في حافاتها اهواء الجن . وفي وسطها بركة مثمنة الشكل تقذف في الفضاء عموداً من ماء تسقط حباته المتلألئة في حوض متسع يحمله اثنا عشر اسداً نحتت من الرخام بفن زخرفي ساذج .

انها تقذف المياه من افواهها في اقنية رخامية مسطحة جداً تتصل بالنوافذ الاربع الموجودة في الغرف المقابلة ، ففي اية غرفة جلست ظهر لك منظر المياه المتدفقة .

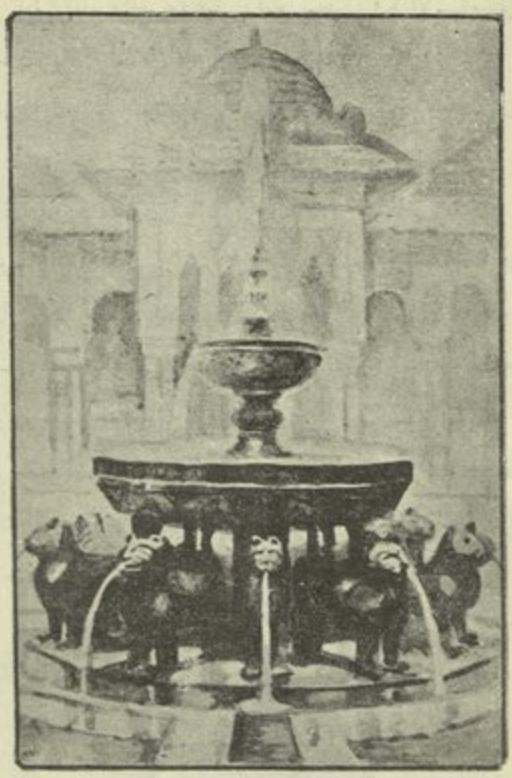

بركة الاسود - الحمراء

ابيات منقوشة على اطراف بركة الاسود :

ومنحوتة من لؤلؤ شف نورهـا تحـلى برفض الجمان النواحيا
الم تر ان المـاء تجري بصفحها ولكنهـا مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا

* * *

ساحة الاسود هذه ،هي نسبة للبركة المحمولة على الاسود ، وقد احيطت هذه الساحة برواق تعاوه اجمل الاقواس على اعمدة من ناصع المرمر ما كان منهـا مثنى وثلاثاً ورباعاً باشكال متنوعة تظهر كأنها غابة طبيعية . قد برز قسم من الرواق في جهتين متقابلتين من الساحه . يحمل كل منهـا فوقه قبة زمرديه وعقيقية من القيشاني المصقول مرسلة في الفضاء بريقاً يكاد يخطف الابصار ، فكأنها منارة قائمة هناك لتهدي الناس الى محجة الفن والنور .

ظللت ارنو الى هذه القناطر وما عليهـا من نقوش من مخرم يشبه الازهار ، الى نجوم متدلية حول هـذه الاقواس او متدلية من السقوف وقد توشحت باجمل النقش والترصيع وازهى الالوان ،ثم تتدلى منها (المقرنص) Stalactites فيشعر المرء امام هذا المشهد كانه في كهف طبيعي عجيب لتماوج النور والظل ، ولما ابرزته النقوش ما بين

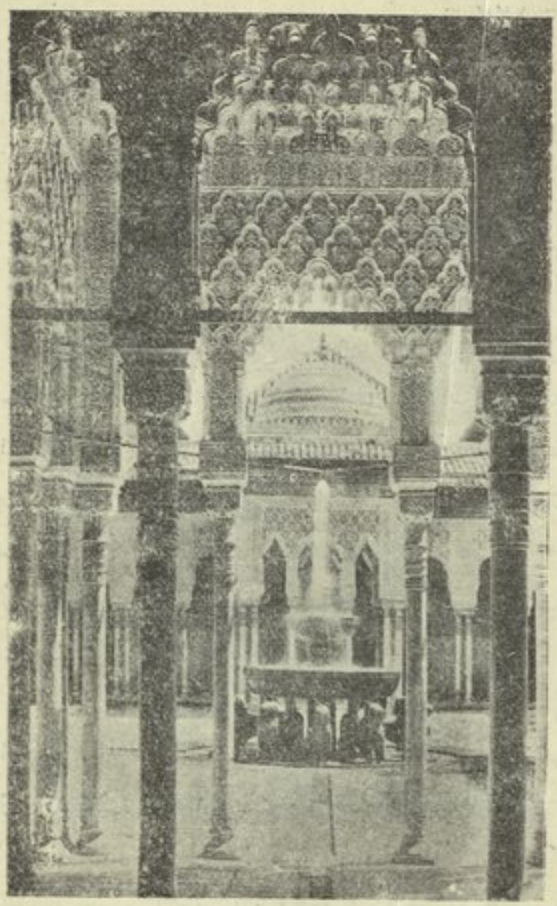

ساحة الاسود

مشجرة او هندسية . ثم ترى هناك الالوان المتجانسة ، كل هذه تزيد في جمالها ولا سيما ما استقر بينها من لطيف الخطوط العربية متضمنة بليغ الحكم ورقيق الشعر .

وكيف ما التفت المرء لا يسمع سوى خرير مياه انسابت بين اعمدة رخامية تشبه بكثرتها ووضعها غابة من النخيل ، فكنت هناك اشعر كأنني اسير في وسط غابة طبيعية بين صوت مياه ومنظر اشجار ورائحة ازهار وترديد طير وفاكهة متدلية وعبير زهر وظل ظليل . انما هذه غابة من المرمر هذبها الفن فردها جنة غناء ، تذهل العقول .

والمدهش ان الانسان كيفما نظر في هذه الجنة رأى منظراً جديداً وظهرت له آيات رائعة لم يرها من قبل ، وهناك ابعاد وظلال وانوار جذابة لم يكن له بها عهد ، وقد برزت امامه اعمدة واختبأت اخرى وبانت جدران تحلت برسوم بالغة الفن يتعاقب عليها وقع النور باختلاف الوقت فتبدو كل حين في ثوب جديد ، انها في تطور دائم ، فعجائبها لا تحد وجمالها لا يمل ، وفنها لا ينضب . كلما زادها المرء نظراً ازداد بها شغفاً ورأى من آياتها عجبا .

لكن لو تأملناها يوم كانت مسدولة على ابوابها الستور الحريرية وجدرانها محلاة بالالوان الوهاجة واعمدتها مغشاة بالذهب وسقوفها مزينة بمختلف الالوان والتحف، وو كناتها قد ملئت بآنية الذهب والعطر والبخور ، ومن تلك النوافر تنبثق المياه المضمخة بالطيوب متدفقة من افواه اسودها الاثني عشر ، ولو رأيتها والاميرات بين جواريهن يتبخترن بدلال بين اعمدة كقوامهن الاهيف ؟!

قضيت ساعات مرت كالثواني بين تلك الاثار والتحف التي كنت احسبها خيالا . فكم لمست جدرانها ومررت بيدي على اعمدتها مراراً لاتيقن ما اذا كان الذي اراه امامي حقيقة او حلماً خادعاً . بل كنت ابحث لاعرف من اية مادة نورانية جبلت هذه الآثار حتى جاءت بهذا السحر ! . . وذهبت مرات كثيرة في هذه الاروقة وتلك المقاصير من خلال الاعمدة ، وفي كل مرة كنت ارى جديداً . انني لم ار قط في حياتي ما رأيت من غرائب الحمراء وما شاهدته من سحر وجمال فاتن ، انني في نعيم ، في جنة تجري من تحتها الانهار .

ضاق وقتي فسرت على رغمي متجهاً نحو غرفة العدل ، انها ثلاث غرف متصلة ببعضها ، حملت سقوفها وجدرانها تحفاً ملئت بالعجائب .

غرف دار العدل

خير لي ان اختصر فاقول هي عجيبة كغيرها من الغرف ، ولقد شاهدت في اعلى جدرانها صوراً (افريسك) مناظر صيد وفي الوسط صورة تمثل مجلس السلطان ابي عبد الله بين وزرائه وقد جلسوا على وسائد منخفضة مزركشة يرتدون «برانس» بيضاء او ملونة قريبة من زي اهل المغرب ، وفي هذه الصور فن ساذج ولكنها ذات اهمية كبرى في تاريخ التصوير العربي ويقولون ان هذه الصور على جلد .

واخيراً دخلت غرفة (Dos Hermanos) المعروفة بالاختين وهي تعد من اجمل غرف الحمراء واغناها لها سقف ذهبت قبته في الفضاء فاذهبت العقل بما فيها من تجاويف تبلغ خمسة الاف تجويف بتراكيب وخطوط متنوعة يحار فيها الفكر ، كلها على اسس هندسية حسابية تنمّ عن علم واسع واطلاع كبير يرافقهما الذوق والدقة وحسن الانتقاء .

هي مقصورة مربعة الشكل ليست كبيرة ولكنها تحفة نادرة ، اخذت اتأمل في سقفها فاذا انا في كهف طبيعي ذي تجاويف وظلال ونتوء متدلية كالعناقيد ، بل كأنها دموع اشتد بصاحبها الاسى فجمدت ، هي بديعة الصنع محكمة التركيب ذات انواع متباينة توحي بمجموعها منظراً غريباً فيه كثير من الاسرار . وهناك

احكام في الظل والنور وما تركته في ارجاء المكان من انعكاسات، ثم هنالك الالوان والخطوط برزت فيها موسيقى تلك النقوش الفريدة كانها التنتناء بل ارق منها دقة وفناً . هنالك الفسيفساء بالوانها الزاهية فاذا كل مـا في المكان يرقص و كل ما فيه انغام والوان وتناسق تفيض بالفن والجمال .

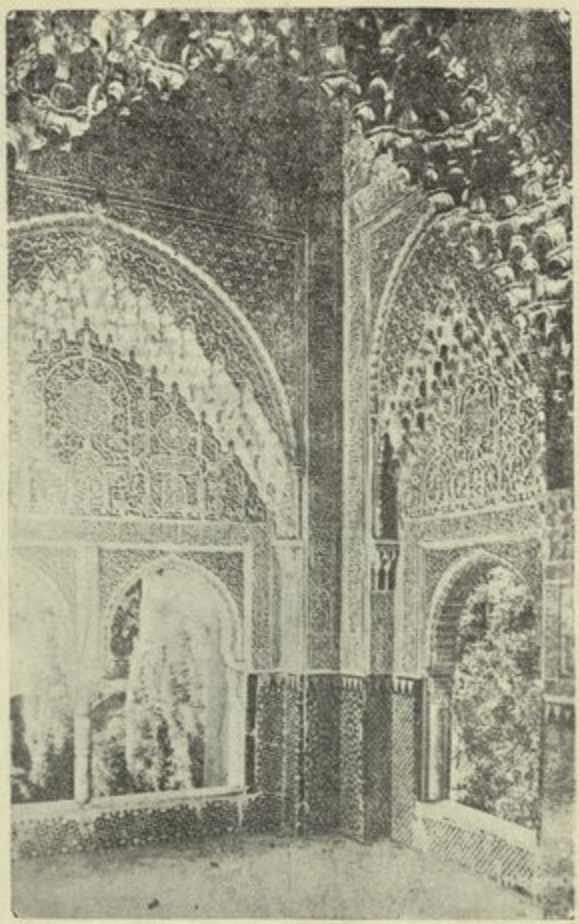

غرفة الاختين

وابدع ما في ذلك ان الانسان مهما كان ثرثاراً قليل الشعور فانه يلازم الصمت في هذا الحرم ، فالمثل الافرنسي يقول :

« ان للفن العالي سلطاناً وروعة » .

وقد لاحظت انه رغم احتشاد الجماهير من الاجانب في تلك المقاصير لا تكاد تسمع صوتاً ولا حركة كأن المكان يظهر خلواً من الناس . واني لا ازال اذكر حينما كنت ازور هذه الغرف ، شاهدت رجلين لهما سحنة المانية جالسا يتأملان شاخصين في هذه الغرفة وبايديهما كتب مغلقة، تركتهما ورحت اطوف في بقية الحجرات ، ثم عدت للغرفة الاولى بعد ان تركتها ما يقارب الساعتين ، فاذا بالرجلين لا يزالا في مكانهما بابصار شاخصة ولم يغيرا وضعيتهما الاولى فخيل الي انهما صنمان من الحجر وقد نسيا الكتب التي في ايديهما فسقطت على الارض .

اني اسفت جداً لاني نسيت ان آخذ لهما رسماً بتلك الحالة فلربما كنت كفيت نفسي مؤنة الوصف ومثلت للقاري، تأثير الفن الاندلسي على الناس ذلك التأثير الذي لا يمكن لاحد ان يصفه .

ان المهابة التي تطوف بهذه البقعة تحمل الناس على الخشوع الزائد ، وهذا شيء لم اره الا في الحمراء وقرطبة والزهراء مما أكد لي ان فنها انتهى الى ذروة الكمال ، واتخذ له من السحر قوة ومن

الجمال سلطاناً .

ان امامنا الآن مسألة فنية حربة بالانتباه وهي انه رغم ما في الحمراء من نقوش دقيقة وزخارف بالغة فان ذلك لا ينقص شيئاً من متانة فنها وروعتها ، فاذا نظرنا الى مجموعها ملكتنا المهابة والعظمة ، واذا تأملنا في دقائقها بهرتنا واذهلتنا بعذوبة موسيقاها فهي مهيبة في هيكلها جذابة في دقتها فقد جمعت بين الضدين وهذا منتهى عجائب الفن . اما مسألة الالوان وتركيبها ومهارة تمازجها واندغامها وما يتولد منها من تأثير وتموج فما يدل على ان هؤلاء الفنانين قد نفذوا بفنهم الى صميم الطبيعة درساً وفهماً حتى ابرزوا منها فناً زخرفياً خاصاً بهم وهذا برهان آخر على ما تقدم .

وخلاصة القول ان من يروم مشاهدة شيء من اساطير الف ليلة وليلة فليزر الحمراء ليراها هناك حقيقة ماثلة ، بل من يود زيارة الفردوس فعليه بالحمراء ، ولا مبالغة في ذلك لان اولئك المسلمين قرأوا وصف الجنة في القرآن وبنوا قصر الحمراء على مثالها تماماً وكمالا فمن زارها فكأنه زار الجنة التي تجري من تحتها الانهار ، ومن يستطيع وصف الجنة دار الخلد التي وعد الله بها عباده الصالحين ؟

انني لست باول من فتن بها ولكن كل من زار الاندلس

وشاهد هذه الروائع الخالدة اخذ ثم قال : « آمنت بفن الحمراء وسحره » ولذلك لايرى هنالك سوى مذهول يرنو بعينيه ويهفو بقلبه الى تلك المعجزات ، حتى كأنه في صلاة يهبط عليه الوحي من لدن النبوغ العربي .

وما كدت اتوسط هذه القاعة الساحرة حتى خيل الي حسان جلسن الى بعضهن يضربن على آلات الطرب يرددن الطف الشعر بارق الالحان وبعضهن ينقلن الخطى على تلك النغمات ، وكانت تهف علي رائحة عطرية مضمخة بشذى الحب واكسير الهيام . لا ادرى ما اوحى الي بمثل هذا؟! . لعلها نوافذ المقصورة ذات القناطر والاعمدة اللطيفة حيث ظهرت وراءها اشجار حديقة Daraxa بازهارها وبركها التي تقذف في الفضاء مياهها ضاحكة متدللة!؟عدت اتأمل في جوانب القاعة تاركاً القيشاني والفسيفساء والنقش والترصيع وما هناك من المدهشات واخذت اتلو ما انبث فيها من رقيق الشعر الاندلسي الراقي الذي اتى مماثلا لفنها الهندسي بعذوبته وبعد خياله ، ولا غرو فهو يمثل النفس العربية في ذلك العهد الزاهر ، وبعض هذا الشعر لابن زمرك كاتب محمد الخامس من بني نصر وهذا بعض ما استطعت حله من

بين انياب التهشيم وضربات الحديد .

انا الروض قد اصبحت بالحسن حاليا ... تأمل جمالي تستفد شرح حاليا
اباهي من المولى الامام محمد ... باكرم من يأتي ومن كان ماضيا
ولله مبناه الجميل فانه ... يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للابصار من متنزه ... (؟) (؟) نفس الحليم الامانيا
به القبة الغراء قل نظيرها ... ترى الحسن فيها مستكناً وباديا
تمد لها الجوزاء كف مصافح ... ويدنو لها بدر السماء مناجيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها ... ولم تسك في افق السماء جواريا
بها المرمر المجلو قد شف نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
فلم نر قصراً منه انعم نضرة ... واعطر ارجاء واحلى مجانيا
فان ملأت كف النسيم مع الضحى ... دراهم نور (؟) عنها مكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها ... دنانير شمس تترك الروض حاليا

***

كذلك :

فامنت حتى الغصن من نفحة الصبا ... وارهبت حتى النجم في كبد السما
فان رعشت زهر النجوم فخيفة ... وان مال غصن البان شكرك يمما

***

وهناك ايضاً :

تبارك من اعطى الامام محمداً مغاني زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدائع ابى الله ان يلقي لها الحق ثانيا

***

وخنساء الاندلس اليست بهذه الابيات الرقيقة تعرض امام اعيننا صورة ملونة باجمل تعبير وادق وصف ؟

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمإ زلالا الذ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم
يصد الشمس انى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

***

وهناك بعض كلمات سطرت في حواشي الغرف منها : الملك الدائم والعز القائم . الحمد لله على نعمه . ولا غالب الا الله . عز لمولانا ابي عبد الله . وما بكم من نعمة فمن الله . وغير ذلك كثير يستحيل اثباته كله . كنت اجد صعوبة كبيرة في قراءته لان اكثره بات متهدماً او مشوهاً بضربات العصي والخديد . وهذا برهان

على تقدير الفن واحترامه هناك بينما كنت اشاهد في ايتاليا اثاراً فنية قيمة معروضة في الشارع والناس على اختلاف درجاتهم واعمارهم يمرون امامها بكل احترام.

مع ذلك يجب ان لا ننسى قط ان هذا القصر التاريخي ترك مئة وخمسين سنة مهملاً ونهباً للجميع فجعلته الحكومة اولاً سجناً للمحكومين بالاشغال الشاقة ثم ترك خراباً يؤمه اللصوص والمتشردون ثم سكنه الفقراء ممن لا مأوى لهم يصنعون فيه طعامهم ويغسلون ثيابهم وامتعتهم تاركين الاقذار والاوساخ على تلك الدرر الثمينة [1] وكم اقتلعوا من جدرانه قطع قيشاني وجعلوا من ابوابه الجميلة وقوداً!.

ان الحمراء مريض فكر الاسبان اخيراً بالاعتناء به لمنفعتهم لانهم وجدوه لبلادهم ثروة عظيمة بل ينبوعاً من الذهب لا ينضب.

لقد اثبتت الارقام ان عدد السياح الذين يقصدون اسبانيا سنوياً لمشاهدة الاثار العربية يزيد عن الثلاثمائة الف فتأمل!..

اجل فكروا بالاعتناء بالحمراء ذاك المريض الذي يعيش منذ

---

(١) كوستاف لبون كتابه مدنية العرب

القرن الرابع عشر وقد تحمل وصبر على فظائع شارلكان وامثاله وعنعنات المتعصبين ونهب السلابين من عام ١٦٠٠ الى ١٨٥٠ .

ان التاريخ لا يعرف قصراً اسمى اليه واحتقر كقصر الحمراء وانا نعجب كيف بقي لنا من آثاره لليوم شيء ! ؟ .

علينا ان نعلم انه لولا ندباء واحتجاج ابناء الفن والادباء امثال الكاتب الاميركي النبيل (واشنطون ارفنغ)Washington Irving الذي وقف حياته وماله لانقاذ هذا الاثر العظيم خدمة للفن والحق وقد كتب عنه الشيء الكثير وخصص مجلداً عن الحمراء عام ١٨٢٩ . وقام باصلاح عظيم في الحمراء حيث يرى الزائر مكاناً باسمه اعترافاً بفضله وجهوده . ثم الكاتب الفرنسي (شاتو بريان) و (تيوفيل غوتيه) و (كلود فارير) و (الدكتور غستاف لبون) والفنان الشهير (رينول) الذي بلغ من شغفه بهذا القصر ان ترك فرنسا وطنه وسكن هناك يستوحي جمال الفن العربي الساحر وهناك كثيرون غيرهم من الادباء والفنانين . اي نعم لولاهم لظل هولاء الناس يعملون على تخريبه ولزال كل اثر من ذلك التراث العربي الثمين ومن يجب ان يعرف مكانة المدنية العربية وعظمتها فليزر الاندلس حيث يشاهدها عظيمة باهرة .

هذا شيء يسير عن فظائع الاندلس الفنية يتألم لها كل من يحب الجمال ويقدس النبوغ ويحترم الحق والتاريخ، لان الحق والجمال والنبوغ لها حقوقها عند العاقل الحكيم وهي عنده فوق اوساخ المعتقدات وسخافات التقاليد .

لنترك الان ظلمات القرون الوسطى والتذكارات المؤلمة ولنتمم انشاد هذه القصيدة الراقية التي نظمت عقدها نفوس حساسة ونقشت اياتها على هذه البرك المرمرية حيث يرفرف الحمام الابيض عليها وعلى اغصان اشجار حديقة (داركسا) النضرة حيث أنعم قريباً تحت افياء اشجارها الظليلة ارنو الى الحمراء منشداً في محاسنها مع الشاعر الاندلسي قصيدته الرائعة :

وكأنه من درة شفافة تعشى العيون بشدة اللمعان
لا يرتقي الراقي الى شرفاته الا بمعراج من اللحظان
عرج بارض الناصرية كي ترى شرف المكان وقدرة الامكان
في جنة غناء فردوسية محفوفة بالروح والريحان
وتوقدت بالجمر من نارنجها فكأنها خلقت من النيران
ان فاخر الاترج قال له ازدجر حتى تجوز طبائع الايمان
لي نفحة المحبوب حين يشمني طيباً ولون الصب حين يراني

كم شاخص فيه يطيل تعجباً من دوحة نبتت من العقيان
قس الطيور الخاشعات بلاغة وفصاحة من منطق وبيان
فاذا اتيح لها الكلام تكلمت بخرير ماء دائم الهملان
وكان صانعها استبد بصنعها فخر الجماد بها على الحيوان
فسماؤه في سمكها علوية وقبابه فلكية البنيان

***

ومن ثم خرجت متمماً جولتي قاصداً نحو غرفة بني سراج وهي لا تقل عن غيرها جمالا وعظمة بما فيها من نقوش مدهشة . فلما نظرت الى بركتها التي يسيل منها الماء ببطء كانها عين دامعة تذكرت حالا تلك المأساة الفظيعة التي مثلها بين جدرانها ابو عبد الله حيث قتل بطعنات الخناجر اشراف بني سراج وذلك يوم دعاهم الى وليمة فلطخ دمائهم القيشاني البراق . ان ابا عبد الله اميرنا الفتى لم يكن كما نتصوره لطيفاً حليما . بل كان رغم جماله كثير الغيرة والغرور ، انما كثرة غروره كللت مفرقه بالشقاء ، فكانت نهايته عبرة ، وعبرته ذهبت مثلاً في العالمين .

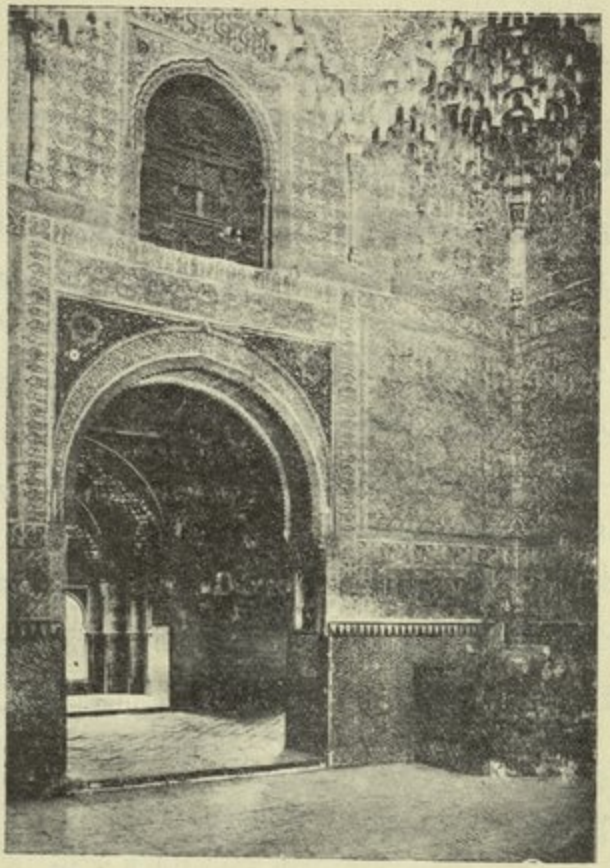

مقصورة آل سراج

انه لحديث شجي مؤلم ، انتزعت نفسي منه ملتفتاً نحو الساحة مخترقاً بنظراتي غرفة الاختين فانتهيت الى نوافذها الجميلة التي تشبه عيون حسناء اندلسية ، وقد بدت من خلال جفونها الفاتنة حديقة (داراكسا) واشجارها الباسقة المحيطة بالقصر، وحالا قصدت اليها ماراً بساحة الاسود فالبركة، ولكن الجرس الان يدوي فالى الغد .

انني في هذه المرة سلكت طريقاً آخر لناحية Generalif او (جنة العريف) وكانت تتراصف تحت نظري نماذج من مختلف الالوان على الجبال المقابلة . والشمس في تلك البرهة تودع النهار تاركة على الكائنات الواناً نارية تزيدها شدة لون السماء الزمردي ، اما السهول فكانت ملأى بمجموعة من الالوان لا تصل اليها ريشة اعظم فنان وقد لمع في وسط السهول نهر (شنيل) كانه نصل عربي قاطع . بلغت الوادي فنظرت نهر (الدرو) Darro الذي كان يدعى في زمن العرب نهر الدر او الذهب لما كان يغدقه على الاراضي من الخير والنعم . طبعاً لانه كان موزعاً بشكل فني . ولكني اضطررت للهرب من قربه للرائحة الكريهة المنبعثه منه لانه اصبح اليوم محلاً للاقذار وقد بدت لي فوقه بقايا جسور عربية ضخمة كانت متصلة بالقلعة .

رفعت نظري نحو الهضبه الخضراء حيث برز مجموع قلعة الحمراء الجبارة ، هذا البلد الساحر بلد اللؤلؤ ، بلد الفن هناك ساحاصر غداً واني ساكون بلا ريب اسيراً طائعاً لجمالها الفاتن .

الحمراء هي غرناطة ، بل الاندلس هي الحمراء ، هنالك سابقى متعبداً ولن اغادرها الا عند الرحيل . . . وياليته لم يكن .

اخذت طريقي نحو الفندق ولكن جاراتي الاندلسيات فيه لم يكن ليتسنني جمال الحمراء الذي ملك لبي . فلا عذب حديثهن على المائدة ولا صدى قهقهتهن في الصالون حتى ولا ارتفاع انشادهن الجذاب ، وضربهن على اوتار قيثارة وقاب او نقر الكستنائيات الحادة ليخفف من لهيب غرامي لساحة الاسود .

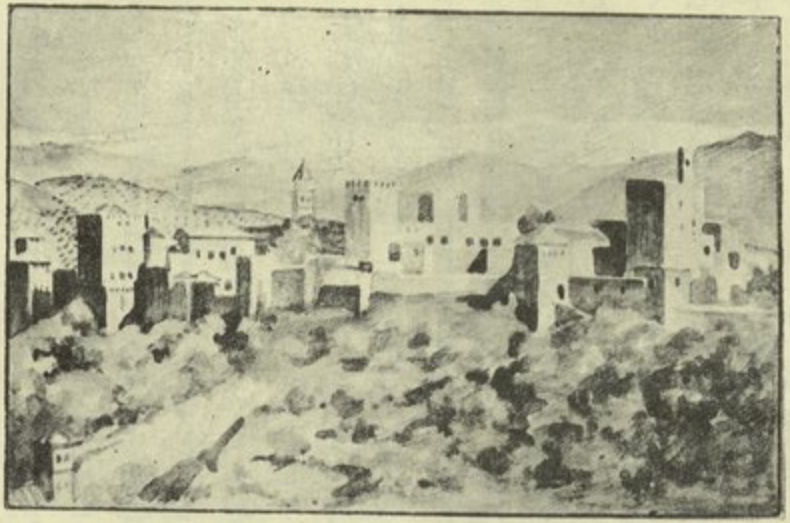

منظر قلعة الحمراء الخارجي

ان الزائر لا يرى الاثار العربية فقط في ساحات الحمراء وخلال اعمدة قرطبة وقاعات قصر اشبيلية ومنعطفات طليطلة . كلا انها اكثر من ذلك هو يلمسها في كل اسبانيا وخاصة في الاندلس . يشاهدها في الشوارع ، في البيوت ، في الحدائق ، في حياة الاندلسيين الخاصة والعامة بين الحان موسيقاهم ولغتهم وخصوصاً في وجوه نسائهم وعلى جفون عيونهن العربية الفاتكة . وبعد كيف لا افكر بهم وانى لي ان انساهم ؟ .

عندما كنت ارى حسناء اندلسية كنت ارى ليلى اواتحدث الى اختها كنت اسمع نغمة هند او انظر لوجه رجل كنت ابصر قيساً وحينما يلاطفني امرؤ منهم او يدعوني لضيافة كنت اشعرباخلاق عربية ومكارم قحطانية سالمة لم تشوه ولم تنالها يد التزييف .

يا لله ! انني في بلادي بين قومي واخواني . . .

قضيت ليلة احلامها اندلسية وايقظت الفجر من سباتهميمماً نحو من اشغلت قلبي ومنعت عني الكرى . سرت اليها متأبطاً ريشتي والواني ولكن لم اجرؤ على تصوير شيء . ان الاعتراف بالقصور فيه كل العذر ، ان يدي كانت ترتجف من روعة هذاالفن . ان اعظم فنان يرى ريشته قاصرة امام تلك الاثار السماوية . ورب قائل يقول : ياله من

مبالغ متهوس باثار امته . ودفعاً للريب اليكم ما قاله احد كبار فناني الفرنسيس [1] عندما زارها :

« حينما نظرت الى الحمراء ، هذه المعجزة وهـذا الحلم بل هذا . . . حقاً لا شيء يضارع جمالها ، ولا يفعل كسحرها ولا يسكر كخمرتها . لقد قطعنا مسافات كثيرة من الارض ومررنا ببلاد جميلة لنأتي الى غرناطة ، اذا كل ما شاهدناه من جمال وما تحملناه من مشاق زال عندما وقفنا مأخوذين امام فتن الحمراء المغوية . آه باسم الآلاب والابن وروح القدس ! . . لله درك يا محمد ! انت العظيم الفرد ، الاوحد . امـا انت اوحيت لاتباعك هذا الفن الساحر ؟! واني اجهر باننا نحن فناني اليوم نعد برابرة وحوشاً او بهائم ممسوخة اذا قابلنا فننا بفن العرب واثارهم الخالدة ولا سيما اذا انعمنا النظر بانصاف في الفرق بـين فن قصر شارلكان الاسباني وفـن قصر الحمراء العربي . . . »

وهناك كلودفاريز الكاتب الفرنسي يقول : « انني اعرف كثيراً من الناس لم ترقهم نابولي واثينا وروما ولكن لا اعرف احداً

(١) المصور (هنري ريبيول) صاحب صورة « سالومة » الشهيرة « عن رسائله » .

لم تجذبه غرناطة وغرناطة هي الحمراء ذات السحر والفتنة »

وقفت بجرمها فلمست الفرق العظيم بين حقيقتها والصور التي كنت اراها من قبل التشرف بعظمة هذا القصر وايقنت انها فنون لا تصل اليها عدسة الفتغرافي ولا ريشة المصور القدير . انني شاهدت اثناء رحلاتي اثاراً كثيرة وزرت قصوراً للملوك ومتاحف اثرية ومعابد مختلفة تعد لآلي فريدة في جيد الدهر فلم اشعر ازاءها باشعرت وانا ماثل امام فتن الحمراء لذلك لا اخشى ان اقول : لا آثار روما ولا معابد اثينا ولا قصور مدريد ولا عجائب باريس تفعل في النفس فعل فنون الحمراء.

***

بلغت القصر وساحته واخذت اطوف في حدائقها ماراً بين شجرها وزهرها واترجها ذي اللون الناري وطوراً امر باحواض جميلة الهندسة حيث المياه العذبة تقطع هذا السكون بصوت ضحكها المتكسر في الاحواض فتفتر عن بياض مرمرها الناصع . مناظر بديعة جعلتني اتساءل : ترى كم جلست بين تلك الاشجار من اميرات حسان جلسن الى احواضها وقطفن من ازهارها بل كم شهد هذا المكان من حب وغيرة ومؤمرات ، وسجل من وقفات عشق ومناجاة

غراميه في ليال ساحية مقمرة ؟

صورة غريبة يوجها اليك هذا المكان الغريب فتنشد مع الشاعر :

رعى الله بالحمراء عيشاً قطعته ذهبت به للانس والليل قد ذهب
ترى الارض منها فضة فاذا اكتست
بشمس الضحى صارت سبيكتها ذهب

تابعت طريقي نحو Tocador ومقصورة الملكة ولم ابعد عنها كثيراً حتى عدت اشاهد فظائع جديدة وهناك بقية ابراج دلتني الكتابات المنقوشة عليها ان بعض هذه الابراج هدمتها قنابل الفرنسيس عام ١٨١٢ واهمها برج Siesto Suelos من حيث خرج ابو عبد الله

وبعد زفرات عميقة صعدتها هبطت الى الحمام حيث قرأت في احواضها المرصعة بالفسيفساء والالوان الزاهية ، صفحات رائعة عن الف ليلة وليلة ، هنالك شاهدت الربيع ناضراً حياً . ثم هناك البرك التي سال ماؤها منشداً قصيدة شجية عن قوم مضوا بعد ان خلفوا اثاراً نادرة يحار بها الفكر ويعتبر بها الزمان . بلى هنا تمثل بجلاء تاريخ العرب اللامع ومدنيتهم الزاهرة في الاندلس بفضل فنهم الحقيقي الذي يضيء نوره ولو كره الجاهلون .

واخيراً دخلت ردهـة (الاستراحة) Sala de reposo هي حجرة صغيرة مربعة الشكل لا يزيد طولها عن خمسة امتار فيها ايوانان متقابلان يبلغ طول الايوان نحو مترين وهو ذو قنطرتين على عمود واحد وجدرانها كلها من الفسيفساء الباهره . هنـا كان الملك والملكة يأويان لتناول المرطبات وسماع شيء من الموسيقى بعد الحمام وفي وسط القاعة فوارة بسيطة ولكنها كالنور من العين . وقد بني في اعلى الحجرة شرفة اعدت للمغنين والعازفين وكانوا عميـاناً كيلا يروا نساء الامير ، والامير العربي طبعاً شديد الغيرة على من احب حتى من الكأس التي تشرب بها .

انما اذا قلت ان هـذه الحجرة لا تزيد عن العشرين مـتراً فيجب ان لا نستخف بها ، ومن الخطأ تسميتها غرفة لانها جوهرة ثمينة نادرة بل هي درة من القلادة الرائعة التي يتحلى بها جيد الحمراء .

ردهة الاستراحة

اذا نظر المرء الى هذه المقصورة ارتفع حالاً الى الملأ الاعلى وانسلخ عن كل مـادة ، هو لا يرى غرفـة ولا حجرة ولا اي شيء آخر من مسميات هذا العالم بل يرى اطيافاً نورانية تحف به وتنشد اغنية عاوية اوحاها جمال هذا الفن . فـاذا المرء يشعر انه مع اناس آخرين في بيئة جديدة بين احلام وآمال بين لطف واناقة ينشد شعراً وينشق غراماً .

هذا ما توحيه اليك ما يسمونها غرفة الاستراحة بما فيها من فسيفساء هي الربيع بزهرة وريحانه والقيشاني بجماله ورقته ، هـذا والمكان قد خلا من اهـله ومن امرائه وحسانـه ومن الموسيقى والطيوب ، الا من دموع فوارته النادبة ، فكيف لو وجدته في ثوب عزه ؟ اذن لرأيت ثم نعيماً وملكاً كبيرا . وحينما كنت اتنقل بين هذه الحجرات كنت ارى كثيراً من الناس مأخوذين شاخصة ابصارهم الى هذا الفن فاشعر بلذة معنوية غريبة واكبر في عيني نفسي .

اتخذت طريقي نحو الابراج ماراً بالحدائق والرياض فدار دمشق التي تشبه قصور دمشق انما هذه تفوقها بدرجات اناقة وغنى ثم مررت بالمسجد الصغير ولما وقفت امام محرابه الساحر الذي لا يحيط به وصف تضرعت اليه عز وجـل ان يؤتيني من لدنه قوة بيان استطيع بهـا

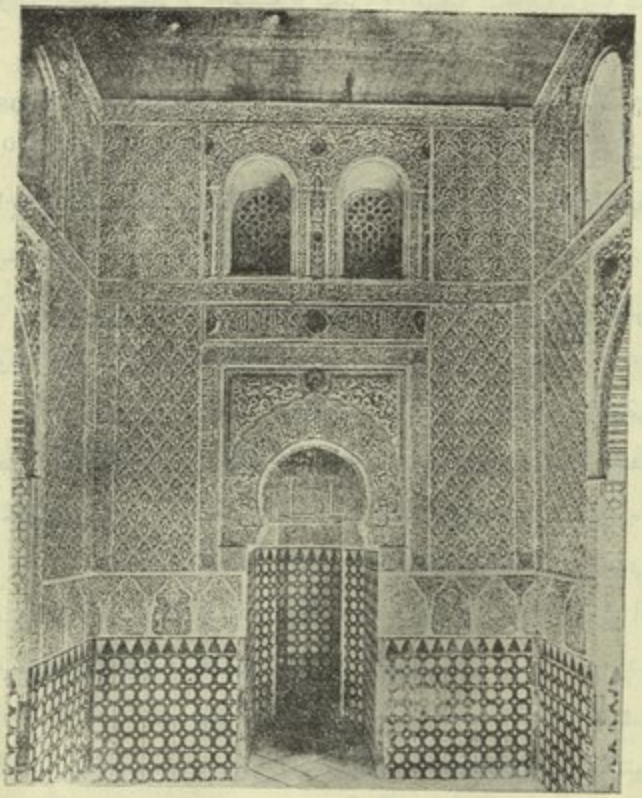

محراب جامع الحمراء

وصف هذه المعجزات العربية ولكن ...

وتابعت سيري ماراً ببرج الماء ثم (القنديل) Candil و Picos و (بيت القاضي) Cadi فالاولاد ، حتى بلغت برج (الاسيرة) Coutivo وهذا له نافذتان حويتا من الدقة والسحر ما لا تحويه عيون اجمل حسناء ، ولا مبالغة ، لان كل زائر هنـاك يصبح اسيراً مصفداً بسلاسل متينة من فن خلاب .

من مميزات الفن العربي الشعر والرقة والموسيقى في الخطوط وهو يجمع البساطة مع الفن والعظمة مع اللطف .

ومن مميزاته ايضاً القنطرة ذات الشكل النعلي التي يتفرع عنها انواع كثيرة وقد تفنن العرب بالاحجار القنطرية كثيراً فاحدثوا المضلع والمتداخل والمسنن والمجزع المختلف الالوان .

وقد تفردوا ايضاً بالقبب فجعلوها مرتفعة على جدران متعددة الاضلاع لذلك تبدو اكثر جمالا وادق مبنى سيما النقوش التي يزخرفون بها القبة فتكسبها كثيراً من الظرف .

آما المآذن فهي عند العرب موضوع متسع للتفنن فكانت في البدء مربعة الشكل ولكن بعد القرن العاشر للميلاد اخذوا يتفننون بها واحدثوا فيها اشكالا متنوعة تحوي كثيراً من اللطف والتناسق

ذات قدود وقامات هيفاء، وتركوا فيها شرفات جميلة الشكل غنية في النقوش .

وارى ان العرب في فرع الزخرفة بلغوا شأواً بعيداً وابتكروا كثيراً مما دل عن ميل قوي واستعداد غريب في هذه الناحية . فانهم ترجموا جمالات الطبيعة وكيفوها حسب رغباتهم واهمها (المقرنص) الذي اخذوه عن الكهوف الطبيعية كذلك الازهار فانهم تصرفوا بها بفن وابتكار نادر مما يدلنا على انهم لم يكونوا مقلدين بل هم فنانون بالفطرة كما ان المنطق رائدهم في بحوثهم وتجاربهم . ان في النقش العربي حساباً عميقاً ونظاماً يسيره خيال سام يختلف عن الخيال الغربي . فالنسق العربي ينم عن روح شفافة شعرية ذات روعة تتراءى للناظر امام محراب جامع قرطبه وساحة الاسود وقصر اشبيلية وما هنالك من عجائب اندلسية .

واقرب الفنون الغربية لفن العربي هو الطراز (القوطي) الذي فيه كثير من اللطف والتناسق انما هذا لما فيه من الظلمة والجمود يضع في النفس كثيراً من الحزن والكآبة ويجعل الانسان ان لايفكر بسوى الموت بينما الطراز العربي بانواره والوانه المشعة وموسيقاه يبعث في نفس الانسان البهجة التي تحبب اليه الحياة والامل . اما النسق الروماني

فانه يدل بفخامته وتقاطيعه وخطوطه الجافة عن عظمة مادية وعن قوة حربيه تصور للمرء الفتح والاكتساح ، فهو نسق جبار اما موسيقاه فصليل السيوف وانين الجرحى — هو فن عملي ، وفي هذا الحال ارى ان النسق اليوناني احسنها فهو يجمع بين القوطي والروماني فله من الاول الرقة وله من الآخر القوة لذلك فهو طراز مهيب لطيف متناسق الخطوط كله انسجام ينشد فوق (اكربول) اثينا اغنية رصينة ويطوف حول تمثال الزهراء [1] بروح الفن والجمال .

وقبل ان اغادر غرناطه احببت ان اتوسع في رحلتي فقصدت الجبل المقابل للحمراء لاحظى بمنظرها العام وجمال موقعها فذهبت ماراً في طريق ضيق بين بيوت قديمة عليها شيء من المسحة الشرقية يسكنها قوم هم مثال البؤس جلس بعضهم امام البيوت صامتين كانهم كتلة من شقاء تركت هناك ، وجو ملي بالحزن والكآبة كله قاتم موحش يوحي للانسان منظراً مرعباً ويذكره بفاجعة عظيمة . هنا جرت عام ١٥٦٩ الفظائع المخجلة والمجزرة التي مثلها فيليب واشياعه ، اجل في هذه البقعة السوداء كان يسكن البقية من العرب العاملين الذين

---

(١) الزهراء هي تمثال خيالي لآلهة الجمال

استسلموا لفرديناند وايزبلا ليعيشوا آمنين فقطعا لهم العهد فاطمأنت نفوسهم واستمروا في اعمالهم المفيـدة لان جلهم كانوا من الصناع والمزارعين ، كانوا اليد العاملة في البلاد . ثم اجبروا على ترك دينهم فاطاعوا ، كانوا يخضعون للقانون ويدعون للسلطان . ومع ذلك كانوا يأتون باجمل الصناعات وانفع الاعمال العمرانية مدة من الزمن ولكن حينما جاء فيليب الثاني احب ان يكون من رجال التاريخ البارزين . . . فاخذ في اضطادهم ناكثاً العهد الذي قطعه لهم من سبقه من مـلوك الاسبان الصادقين .

وقد بلغ به التعصب ان يتعرض لشؤونهم المنزلية . والظلم متى جاوز حده دفع الانسان الى الثورة مهما كان ضعيفاً انه يرى في الموت راحة . فكانت النتيجة ان فيليب امعن فيهم قتلاً وتذبيحاً حتى ابادهم عن آخرهم وكانوا يبلغون نصف مليون من خيرة الفنانين واصحاب المهن . وهكذا فقد اصبح فيليب بعد هذه المأثرة من المشهورين . . . لكن هذا لم يكف فجاء فيليب الثالث واصدر مرسوماً بقتل جميع العرب الموجودين في اسبانيا وهكذا انجز العمل الانساني واصبح فيليب من الخالدين . . . ولكنه نسي انه بقتلهم قـد حرم البلاد من قوة صناعية زراعية علمية فعالة ، هي قلب اسبانيا النابض مكتفياً بذهب

اميركا وبعض من كانوا ضربة على البلاد ، فاذا اسبانيا اضعف امة في اوروبا بعد ان كانت صباحة السيادة فيها، اصبح حالها كمن سعى الى حتفه بظلفه . . .

اسرعت الخطى كي انجو من هذه المشاهد المؤثرة نحو كنيسة سان نقولاس حيث وقفت هنيهة امام باحتها المطلة على الوادي. وهناك يبدو منظر عام لقلعة الحمراء الذاهبة ابراجها في الفضاء . ثم عكفت راجعاً فمررت بكهوف الغجر Gitanos وهم جماعات من الرحل تعيش من الرقص والتدجيل امام بعض الاغبياء من السياح الذين شاهدت منهم كثيرين هناك هم العوبة بين يدي الراقصات يرشقونهم بنظرات غرام مصطنعة . ويجب ان لا نبخسهم حقهم ايضاً فهم على جانب عظيم من التفنن في ضروب الرقص والاغراء ولهن فيه رشاقة زائدة سيما الضرب على الكستنائيات والنقر على الدف .

هذا شيء مبتذل لا يهمنا البحث فيه فلنعد لاستجلاء ما في معرض الطبيعة من جمال وبهاء .

فها نحن امام منظر (الجنراليف) او جنة العريف مصيف امراء العرب . وهي تقوم على قمة رابية اكتنفها الخضار وبدت بعض صروحها الناصعة التي تشرف على قصور الحمراء وتقوم ورائها جبال

(السيارا نفادا) الشامخة . فهرعت لزيارتها وكان يفصلها عني واد عظيم وبعد ساعة كنت امام باب بسيط يتصل بطريق غرست على جانبيه اشجار سرو قديمة وشاهقة عانقت ازهار الدفله والورد جذوعها وانسابت على طرفيها ايضاً مجاري المياه ، فهي في حلة لايفصح عنها ضمير باجمل مما قاله ابن خفاجة الشاعر الاندلسي مصور الطبيعة .

لله نهر سال في بطحاء اشهى ورود من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كانه ، والزهر يكنفه ، مجرّ سماء
وغدت تحف به الغصون كانها هدب يحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهبُ الاصيل عن لجين الماء

وبدا في آخر هذا الطريق مقصورة عربية . وما كدت اقترب من احدى شرفاتها المطلة على الوادي الجميل حتى هتفت من شدة الاعجاب : غرناطة ! سهول (فيكا) ! الحمراء ! لله ما احلاها ، كلها اصبحت جاثمة تحت قدمي ! نعم الان ادركت ذوق الامراء الراقي وفهمت سر البساطة المقصودة في هذا البيت القروي المنفرد هنا المختبىء في هذه الرياض بين سكون الطبيعة التام .

لقد بنى الامراء هنا هذا الصرح ليشرفوا على ملكهم

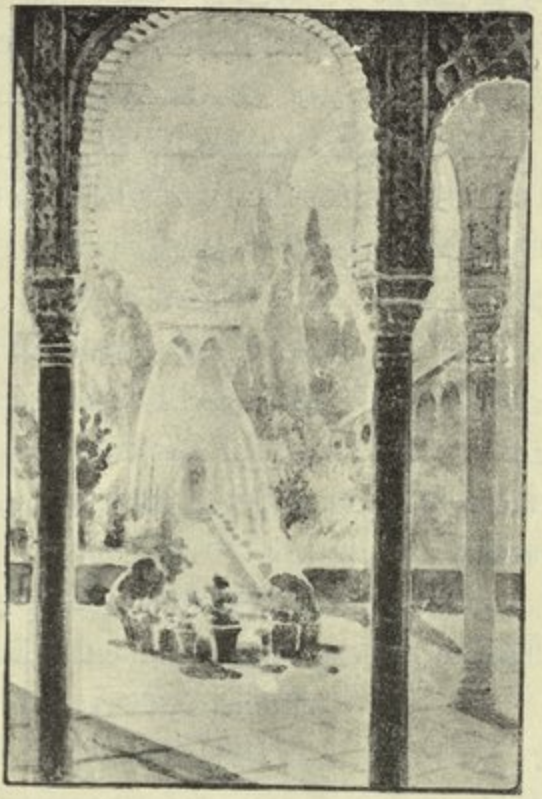

جنرالیف او (جنة العریف)

العظيم . لقد سئموا من السكنى في القصور الفخمة الملأى بالرياش والنقوش ومقاصير تفيض بالفن والترف ومعاقل جبارة كالتي تبدوا بارزة الى يساري .

لاصغ الآن الى أنشودة المياه الجارية حولي واتنشق بمل صدري نسيم الزهر الذي يحف بهذه المقصورة والتي كأنها قسم من فردوس ناء عن ضجيج المدينة .

اخذت اجيل الطرف في جنبات هذه الخمائل والبناء الموجود فيها فهو مستطيل مقسوم الى غرف متوسطة ثم رواق بقناطر عربية ، داره مكشوفة ، وفي وسطها امتدت بركة مستطيلة جداً وضيقة تبعث من طرفيها نوافر تبلغ ايام السنة عداً ولكن الجميل في هذه النوافر انها تتعانق فتشكل قناطر من الماء تتفق وشكل قنطرة الباب الحجري الذي في نهاية البركة .

وهناك في الدار توجد حديقة شمت بالخضرة والالوان المتضاربة والمياه المتلاعبه بانواع كثيرة داعبها النسيم فتعانقت ففاح منها اريج يدخل القلب فيملأه صحة وسروراً . ثم بين الخضرة الكثيفة ظهر درج حجري ولكنه ليس بالدرج الذي نعهد بل هو مبتكر غريب ككل شيء صنعه العرب في هذه الديار .

صعدت عليه فاذا بالمياه ترافقني من على جنبيه وكذلك عند كل مصطبه تربعت فواره من المياه وهكذا تصعد درجات بين مياه وازهار الى ان تبلغ حديقة عاليـة ثم تتبعها ثانية فثالثة فرابعة الى لا ادري اين تنتهي ... وربما كان الى النعيم ولكنني فيه ... هناك بين الازهار والرياحين المتعانقة بين اشجار الحور والسرو والفاكهة بين المياه المنسابه من كل جانب بين القصور الضخمة والقلاع الجبارة بين جمال الطبيعة والفن الرائـع والعظمة والنبوغ في جو الخـلود وقفت ونظرت واعجبت فلم اجد قولا للتعبير افصح مما قاله ذاك الفنان الفرنسي (رينيول) يوم وقف وقفتي هذه فسحر فهتف باعلى صوته قائلاً :

« لان تتزلزل الارض وتتساقط الكواكب وتميد الجبـال وتنهال المدن، ماذا يهمنا — على ان تبقى الحمراء سالمـة خالدة لكي يتاح لاصحابنا مشاهدتها ... »[1]

---

(1) « Que la terre ne tourne plus, que les étoiles tombent, que les montagnes deviennent vallées, que les villes s'ecroulent, que nous importe, pourvu que l'Alhambra soit épargnée, et que nos amis puissent la voir .... ».

عفواً ايتها العبقرية العربية اذا لم اوفك حقك من الوصف لانك فوق الوصف ، وابلغ من سحر اليراع وفتنة الريشة .

باريس في حزيران ١٩٣١

فهرس الكتاب

صفحة

- المقدمة
١ الاندلس
٦ الفن العربي
٩ الفن الاندلسي
١٠ تاريخ الاندلس
١٧ الفن الغربي
٢١ وصف الرحلة
٤٠ طليطلة المنيعة
٥٤ قرطبة دار العلم
٨١ اشبيلية مدينة الطرب
٩٤ غرناطة

فهرس الصور

صفحة		صفحة	
٢١	خارطة الرحلة	٧٦	مطاحن عربية
٢٣	في طريقي الى الاندلس	٧٧	نماذج اسبانية
٢٨	قرية اسبانية	٨٢	جسر القنطرة
٤٤	كنيسة في طليطلة	٨٤	مأذنة (الجرالدا)
٤٩	باب الشمس في طليطلة	٨٦	احدى غرف القصر
٥٢	قروي	٨٨	دار العذارى
٥٤	طريق في قرطبة	٩٠	احدى قاعات القصر
٥٦	طريق في قرطبة	٩٣	منظر دار العذارى
٥٨	مأذنة كنيسة سان نقولا	١٠٣	باب الخمر (الحمراء)
٦٠	اندلسيات	١٠٦	ناقوس تذكاري
٦٢	مسجد قرطبة الخارجي	١١٤	دار الريحان
٦٧	داخل جامع قرطبة	١١٦	غرفة السفراء
٦٩	المحراب	١١٨	نقوش عربية
٧٢	جامع قرطبة	١٢٤	ساحة الاسود
٧٥	الجسر الروماني	١٢٦	بركة الاسود

١٢٨ ساحة الاسود
١٣١ غرف العدل
١٣٤ غرفة الاختين
١٤٤ مقصورة آل سراج
١٤٧ قلعة الحمراء
١٥٣ ردهة الاستراحة
١٥٥ محراب (الحمراء)
١٦٢ جنة العريف

مطلب من
مكتبة الكشاف ومطبعتها
شارع المدرس - بيروت

DATE DUE

فروخ، مصطفى
رحلة الى بلاد المجد المفقود
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01045860

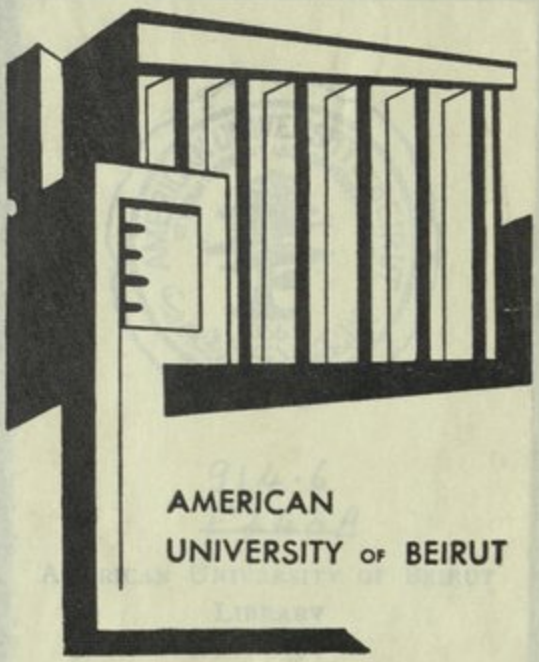

CA
914.602
F24A
c.1